ملاحظات في المنهج



الإهداء

إلى الذين لا يعنيهم كثيراً ما في هذا الكتاب

ولا يحتاجون إليه . . لأن الله أغناهم عنه .

إلى الذين ربما غبطوني عليه وهم الأحق بالغبطة . أولا يستحق الغبطة من لم يتعرض للأدواء فاستغنى عن الدواء !

أو يستحق الغبطة من يفرح بالدواء إذ يجده بعد عناء وقد كان بإمكانه أن يظل بريئاً ومعافى !

رغم ما اعترانا من وعي ما نزال معرضين ومؤهلين لتنكب الجادة ويبقى المستمسكون بفطرتهم أكثر ثباتاً على طريق الجنة .

إليهم وإلى أبي نموذجهم الذي عرفته جملة وتفصيلاً أهدي هذه الصفحات .

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ صدق الله العظيم

نستطيع ، بقليل من التسامح ، أن نعتبر بداية القرن الميلادي الحالي تاريخاً لاكتمال انفتاح أو فتح أو كسر أو خلع أبوابنا على الغرب ثقافة وسياسة وسلوكاً ، ما لبث أن تبلور بعد الحرب الكونية الأولى واقعاً حضارياً ، أعني دخولاً في منطقة السيطرة الحضارية الغربية ودائرة إرادتها ، دون أن يعني ذلك تماثلاً حضارياً مع الغرب توهمه أو توقعه المتغربون منا على غير رغبة أو إرادة من الغرب الذي افترض أنه يفقد الغاية من سيطرته إذا ما حدث هذا التماثل

الذي لم يكن ممكناً أصلاً بسبب مناعة ذاتية وممانعة تكوينية في الإسلام والمسلمين .. في الخلفية الفكرية والعقيدية التي يختزلها البعض بخبث ـ ظلماً ـ بشرقية مائعة بينما هي تأتي من إسلام جدير في الأساس وموضوعي ورباني غير قابل للإلغاء أو التهميش .. قابل لسبب من خارجه لإنكفاء ما سرعان ما ينقلب كموناً وتربصاً ...

وعلى امتداد ما انقضى من هذا القرن كان يبدو أننا امتثلنا وأن مشروع الإلحاق الغربي قدتم انجازه أو كاد وأن المسألة ليست إلا مسألة زمن .. وكنا من آن لآخر ننهض فجاءات متوقعة بحسب الإسلام ومستغربة بحسب غيره .. ننهض جماعات وفرادى ونستعيد تمايزنا .. ونكبوا ولا ينطفىء الشوق ولا تفتر الإرادة . إلى ذلك كان لنا في زاوية هنا أو عطفة هناك ، في محترف فكري هنا أو محراب أو مضمار هناك من أضاف إلى شرف الدفاع ، دفاع الأمة واستعصامها بإسلامها وإيمانها .. أضافوا إلى هذا الشرف شرف الاضاءة ومتابعة الإسلام تشريعاً وتأريخاًوفكراً عقائدياً يحفظ التواصل وينمي الرؤية منهجاً ومفردات ومن هنا لم تأتِ صحوتنا مفاجئة ،

كانت منتظرة وواثقة . . لم تكن قفزة بل كانت اتصالاً واتساقاً وانتظاماً وتطوراً في الدرجة لا في النوع . وأفرزت مهمات في رأسها أن نعيد صياغة واقعنا طبق عقيدتنا وطموحنا ، وأن نعيد صياغة منهجنا ، أن نستعيده ونستجمع مفرداتنا الفكرية بناءً عليه ونقدمها بمداها الإنساني العالمي مشروعاً حضارياً إنقاذياً للغرب الذي انقلب عليه طموحه الجائر تداعياً وفراغاً وابتذالاً . وأن ننقي سلوكياتنا الإجتماعية والفكرية من مفاتيح وأخلاقيات ومخلفات ومفردات الغرب التي تسللت إبان ما بدا أنه غلبة فكانت علامات على تأثير غالب على مغلوب أو انطباع مغلوب بحضارة غالب . . وإذ كانت تلك الغلبة وهماً سقط كان لا بد أن تلحق بها كل علاماتها المكتوبة بالماء على ماء .

وهذه الصفحات نريد أن تسهم في هذا المنهمك .

قصاراها أن تثير أو تشير . . . دون افتئات على مساهمات إسلامية جادة في هذا المجال . . مجال استعادة المنهج وتخليصه من زؤان الغرب . .

ويبقى لهذه الصفحات خصيصة تبررها وهي أنها

خلاصة تجربة نشأت عن احتمال أولي وبسيط وساذج إلى حد ما ، احتمال بأن الغرب منهجاً ومصطلحاً ورؤية ربما كان ناجعاً أو في الأقل ربما كان في بعض منه ملائماً . فلا بأس من الدخول .. ولم يكن الدخول في الحداثة - الغرب - مخيباً للأمل أو فاجعاً لكثير ممن دخلوا أو اقتربوا ، بل كان معززاً للأمل بأن يأتي يوم ينهض فيه الإسلام خلاصاً .

وقد أتى هذا اليوم .

فجره الصادق آخذ في الإنتشار أفقاً .

ما تزال بعض الغيوم السوداء تعاند وتتوسط دائرة الضوء . ولكن الشمس أقلعت ولن تلبث أن تسطع .

وأفعل الكرم .

قد يكون القطع مع الغرب بدءاً ، من البداية ودون احتمالات راجحاً وأدعى للإقلال من المخاطر ، ولكن الإتصال الواعي ليس أقل رجحاناً طالما يشكل مقدمة طبيعية وضرورية للخروج من السياق والخروج عليه خروجاً مبرراً وجريئاً وقاطعاً

وحصينـاً . . . والحمد لله الـذي هدانـا لهذا ومـا كنـا لنهتـدي لولا أن هـدانـا الله لقـد جـاءت رسـل ربنـا بالحق .

هاني فحص

خريف ١٩٨٦ م

أوليات

إعادة صياغة المنهج

التداخل المنهجي

العودة إلى خط الرفض والإحتجاج

العودة إلى المصطلح القرآني .

مسألة الفن ...

١ ـ إعادة صياغة المنهج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما أعبد ﴾ صدق الله العلي العظيم .

« حتى من اجل قلب نظام حكم الشاه لا نتعاون مع الماركسيين . . . ونحن نخالفهم حتى في طريقة تفكيرهم » .

« . . . . إن إيماننا ومعتقدنا قادران على مواجهة ايديولوجيتهم ، وفي الفلسفة الاسلامية سبق ان طرحت قضية الملحدين ومنكري وجود الله منذ البداية » .

(دروس في الجهاد)

إن الثقافة ، انتاجاً ، ووعياً ، هي وليدة المنهج الذي يضبط ايقاع حركة الفكر ، يربطها بالمنشأ والمبدأ ، ويحفظ سيرها نحو الهدف .

لقد كان الاجتهاد في مجال التشريع مناخاً ومنهجاً اتاح لنا ان نواصل عملية الانتاج والابداع باستقلالية تامة ، مما يعني اننا في هذا المجال مدعوون الى المتابعة في نفس الخط مع تعديلات تطال الاسلوب ، وإضافات لن تكون بحال تعديلاً او تطويراً نوعياً ، وإنما هي استجابات لضرورات التطابق مع ظروف مستجدة ،هي ظروف ايجابية كنا ننتظرها بشوق وصبر ويقين ونعمل على تحقيقها ، ان هذه الظروف بمجملها يمكن تلخيصها بعودة الاسلام ثورة ودولة الى الساحة ، وما يقتضيه ذلك من تغطية فقهية لمناطق الفراغ التي سادت فترة اغتصاب الحكم .

ان هذا الكلام على المجال الفقهي قد لا ينطبق على المجالات الاخرى التي لم تعد استقلاليتنا فيها ناجزة وتامة مما يعني اننا مطالبون بانجاز هذه الاستقلالية .

ان الخلط الذي حصل بيننا وبين الآخرين ثقافياً من الممكن ان يكون امره سهلاً لو انه اقتصر على اختلاط المفردات وتسرب المفاهيم ، ولم يصل الى حد الخلط المنهجي ، وبما انه قد وصل الى هذا المستوى فلا بد من اعادة الفرز : تحديد المنهج اولاً ، ثم عزل المفردات على ضوئه ثانياً .

ان شواهد الاختلاط المنهجي كثيرة يمكن ان نبينها في مجالات متعددة ونورد هنا مثلاً واحداً :

في مجال تعاطينا مع حركة المجتمع والتاريخ تحليلاً أو تفسيراً ورغبة في التوجيه ، ولأننا ننطلق من عقيدة التوحيد والعدل ، قد رأينا ان الثورة المضادة للاسلام في تاريخنا تمسك بالزمام وتؤسس الجور وتكرسه ، ظل طموحنا الى العدل قائماً لا يتزعزع ، ولكن الانفعال الحاد خالط هذا الطموح فأحدث ثغرة منهجية في فكرنا !

لقد انفتحنا أو الكثيرون منا ،على عناوين العدل في نظام فكري آخر الحادي ومعاد في كل حال ، هو النظام الماركسي ، لقد انطلت علينا شعارات العدل

المرفوعة ولم يحاول كثيرون منا عرضها على اصولها المنهجية والايديولوجية ليرى ما يحكمها من استحالة .

ومن هنا انعطف الكثيرون بمقتضى المنهج الماركسي ، على قراءة الاسلام فقرأوه قراءة أحادية ليقربوه من الماركسية، وحاولوا احداث مصالحة بينهما، ولكن المصالحة في مجال الايديولوجيات المتناقضة مستحيلة . . ولا يقع في اغرائه الّا السذج ، ممن يرون التصادف بين المفردات والجزئيات مقطوعاً عن اطاره النظري العام ، لقد تصالح بعضنا مع الماركسية وبقي الاسلام معانداً . . .

* * *

يقول الامام الخميني : « **ان المفهوم الاسلامي القائم على اساس وحدانية الله مناقض للمادية** » .

لقد قرأ البعض تاريخنا قراءة ماركسية خالصة عندما أخذوا احداثاً معينة واخضعوها عن وعي او غير وعي لاطروحة الصراع الطبقي ، واذا كان امثال « حسين مروة » و « احمد عباس صالح » و « حسين قاسم العزيز » و « محمد عيتاني » و « الطيب تيزنيني »

معـذورين لأنهم مـاركسيـون ، واحـزابهم تـطالبهم باخضاع الثقافة الاسلامية للمعايير الماركسية ، فما هو عذر امثال « محمد عمارة » و « محمد احمد خلف الله » و « خالد محمد خالد » وما هو ، عذر من تناول ثورة الحسين (عليه السلام) تناولاً لم يستـطع حسب النية فيـه ولا الاتقان ، ان يخفي تأثـره الـواضـح بـالمنهـج الماركسي .

ان البعض يرتاحون بسذاجة عندما يوصفون بأنهم ماركسيون مسلمـون ، ان قبول هـذه التسمية يعكس الى حد بعيد مدى البؤس الذي انحـدرت اليه بعض الفئات التي اوصلتها براغماتيتها المبتذلـة الى التعسف وجمـع النقائض بينـما يقول المسلمـون الحقيقيـون مـع الامام الخميني :

« ان هـذا المصطلح ـ اي المـاركسيون المسلمـون ـ يعبر عن مفهومـين متناقضـين تمامـاً . . . ان مصطلح الماركسية الاسلامية مصطلح يخالف الواقع » .

وعندما وقف الاسـلام ممانعـاً وجدوا انفسهم علنـاً على ارضية معادية له ، لقد كانوا منـذ البدء هكـذا ،

ان انعدام الاحساس بالتمايز المنهجي هو اصل الداء .

قد يبرر البعض هذا المنحى بانه ربما كان رد فعل على منحى آخر افتقر الى الاصالة والتمايز وحاول ادماج الاسلام بمناهج الجور والظلم . . . وفي الواقع عندما كاد القائم على فكر الجور والتجزئة ان يمسك بمصيرنا كان لابد له من غطاء اسلامي لعملياته وتلك كانت مهمة الاستشراق والتغريب اللذين حاولا جر الاسلام الى موقع الامتثال للمنهج والمنطق المعادي .

لقد وقع الجميع في هذه المفارقة نتيجة لتوهمهم امكان تجزئة الاسلام والانتقاء منه بقدر يسهل المهمة ويضمن الغاية ، ولم يكن ذلك في الاسلام ولن يكون ممكناً . . . وظل الاسلام غير ما يرى فيه الآتون اليه من خارجه اعداء شريرين او أصدقاء سذجاً .

نحن الآن معنيون باعادة ترسيم المنهج في مجال الدراسات التاريخية والاجتماعية على ضوء الاسلام الشمولي الذي لا يقطع مسألة المجتمع والتاريخ ، مسألة العدل والعدالة والتغيير والثورة عن سياقها

العقيدي الشمولي ويعطي للحرية والابداع مساحة كبيرة من اهتمامه ، ولكنه يضبطها فقهياً وعقائدياً بحيث يحول دون اندراجها في منظومة الفكر الليبرالي . .

اننا مدعوون لاعادة صياغة المنهج بدون صور خارجية ، وبدون اي خضوع للابتزاز ، واعادة صياغة المنهج لا تنفصل عملياً عن اعادة تحديد المفاهيم والمفردات .

لقد اعطتنا الثورة الاسلامية من خلال مسيرتها الراشدة اشارات واضحة في هذا الاتجاه وهي اشارات الاسلام وليست بدعاً فيه . ان عملية تعميق ثقافتنا لا تنفصل عن هذا الجهد المنهجي المطلوب والّا فلا طريق إلى التعميق ، وبدونه تبقى الثقافة على السطح .

٢ ـ التداخل المنهجي

﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ .

[البقرة : ٢]

الأفضل لنا علمياً واسلامياً ، عندما نستعمل مصطلح التداخل المنهجي ان نجعله وصفاً موضوعياً محايداً بين ما يبدو متعدداً من مناهج الآخرين وهو واحد . ان هذا الموقف المنهجي ايضاً يفرضه الاحتكام الى الاسلام الذي بربانيته وانسانيته المتآصرتين باعثاً وهدفاً يتفارق مع المناهج الاخرى على اساس مما تقتضيه ماديتها ، وعندما نفرق في مجال البحث والاستقصاء والمقارنة ونشتغل في التفاصيل ، انما نفرق تفريقاً اعتبارياً لا يجزىء الحقيقة العامة التي ننطلق منها او نراها جامعا بين مناهج الآخرين (المادية) .

ذكرنا سابقاً الاختراق أو التداخل الماركسي ، احد اشكال أو تعبيرات المنهج المادي الغربي على العموم ، وبحسب التسلسل التاريخي كان يجب البدء بالمنهج الليبرالي فلماذا عكسنا ؟

نحن هنا ذرائعيون الى حدّ ما ولكن بأخلاقية اسلامية ، ومن هنا نحن مشغولون بما يدور على الارض وبعملية التكوين التاريخي المستمرة ، على اننا لسنا علماء أحياء أو طبيعة . . . نحن نتعامل مع حركة المجتمع والتاريخ تعاملاً غائياً المعرفة فيه شرط وواسطة ودليل عمل ومقدمة تغيير .

هذا التعامل ليس اشتهاء او مزاجاً انه ينطلق من كوننا مسلمين نحمل مشروعاً نريد تنفيذه ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فا لئك هم الظالمون** ﴾(١) ﴿ . . . **ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه** . . . ﴾(٢) ومن كانت هذه حاله فلا بد أن

(١) المائدة : ٤٥ .

(٢) آل عمران : من الآية ٨٣ .

يبحث عن العوائق في الفكر والثقافة والسلوك والعمل حتى يذللها .

نعتقد ان المنهج الليبرالي قد تصدع دون ان يعني ذلك انه انتهى ولكنه يعاني امراض الشيخوخة والخرف . والمنهج الماركسي اقل شيخوخة ولا نقول اكثر شباباً ، وقد ولد وهو يحمل اعراض هذه الشيخوخة بحكم الوراثة ، باعتباره مولوداً من رحم الغرب ، ساعياً للتطابق مع احتياجاته ، وان بعض ملامح الفتوة في مظهر المنهج الماركسي هي ملامح خادعة دون شك ، ولكن ذلك ما يدركه العارفون ، وشعوبنا، قسم منها على الأقل، شبع عناء من الليبرالية حتى تحول الى كتلة من الانفعال تصل احياناً الى تبرير أي نقيض لليبرالية ، ولو لم يكن في الواقع نقيضاً .

نقول ذلك آخذين في الاعتبار ، ان شعوبنا هذه قد غُيبت وغابت الى حد ما عن النقيض الحقيقي (الاسلام البديل) بفعل عملية التدمير الليبرالية التي مارسها الغرب عليها ، ومن هنا فان الماركسية ربما كانت وما تزال منطلية أو حاملة لقدر من قابلية

الانطلاء على الكثيرين من المستضعفين ، ومن هنا فالتصدي لها هو انتهاك فعلي في مهمات المرحلة ، ولكن دروس تجربتنا لا بد ان تعلمنا ان لا نفتح المعركة في جانب ونهملها في جانب آخر ، والاّ وقعنا في مصيدة اثناء انتشال اقدامنا من اخرى (المنهج) . . دون ان يعني ذلك ان لا يكون لنا سلّم اولويات ،واذا كانت الأولوية الآن لإزاحة بقايا الفكر الماركسي من اذهان البعض من اهلنا ومثقفينا ، فان ذلك لا يلغي ضرورة الاستمرار في التصدي للمنهج الآخر الشقيق المنتظر دائما على مفترق الأزمان بالقضاء على الشقيقين غير الشرعيين بحسب قيمنا وشرعنا ، ليصبح المجال مفتوحاً امام الشرعية الاسلامية . من هنا ضرورة الكلام عن اختراقات المنهج الليبرالي دونما حاجة للتمسك الصارم بالتسلسل .

ان هذا المنهج محكوم بغايته وهو ارضي . ارضي يعني (حر) ليس هناك نقطة استقطاب تمارس جذباً أو رقابة . . (حر) يعني مفتوح على التغيرات وبدون ثوابت . . يعني في النهاية انه ليس هناك محور داخلي

ناظم لحركة الفكر والعمل . . ليس هناك روح .

ولكن الـروح في الناس مـوجودة في اعمـاقهم وفي حـركتهم وليس جميع النـاس قادرين عـلى التألـين أي الدخول في قيم الآلة والحاجة وحساب الأرقام .

يمكن للعـامة من النـاس ان تدخـل قسراً في هـذه القيم ، لكن اربـاب العمل ، اصحـاب المعبـد الآلي يـدخلون طوعـاً وبوعي ، وطلبـاً لـلأمن ، لا بـد ان يستلبوا الآخرين . هنـا يأتـونهم من باب الـروح . . وهنا تتحول المسيحية الى مركب تمخر الرأسمالية عـلى ظهره عباب الـروح الاجتماعيـة وتستلبها ، تقيم من خلالها علاقة وهمية مع السماء بعد ان تعـطي المسيحية طابعها البشري الارضي المحض ، تعيد انتـاجها كـما تعيـد انتاج المـواد الأولية لـلاستهلاك ، والاستهـلاك فحسب لأنه الحافز .

هنـا في هذا الحيـز من العـالم المشبـع بـالنبـوات ، الطامح الى العدل والتوازن دائماً ، المستقطب بـالروح المتجه نحو الله دوماً ، عوامل جذب واغـراء للغـرب . ولا بـد من استتباع هـذا الجزء والحـاقه ، لأن حـركة الغرب الأرضية مفتوحة وتـوسعية ، ولا عقـال لها من

الداخل ، وقد اعيد تصدير المسيحية المغّربة الى الشرق فلم تعد عائقاً ، ظل الاسلام هو العائق .. ولا بد من الحاق المسلمين بالفصل بينهم وبين نقطة استقطابهم ، بين الحركة وبين اتجاهها لتصبح عمياء .. بفصل الأرض عن السماء .. ولكنّ القرآن ، دستور الاسلام ، لم يحرّف ولن يحرف ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾[1] ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾[2] فلا بطرس ولا بولس ولا يهوذا الاسخريوطي ؛ والمفردات الاغريقية في الفكر الاسلامي تبقى اجنبية منفصلة ما لم تكن لها قابلية الاندماج الكامل في منظمة الفكر والقيم الاسلامية .. فما العمل اذن ؟! العمل كان بالتدمير ، وعندما يدمر البناء تأخذ اشلاؤه مساراً عشوائياً غير منتظم ، ويسهل في النهاية السيطرة على حركته لمن يريد .

من هنا ابتدأ تدمير الأمة الاسلامية كيانيا بالتجزئة ، وبشرياً بالإبادة والاقتلاع والاغتصاب ،

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) فصلت : ٤١ .

وثقافياً باختراق التاريخ الاسلامي عبر الاستشراق ، وفي القيم والعادات والتقاليد عبر الاستعمار المباشر وقوى التغريب وفي المنهج .

بالمنهج تم نقل الهّم الفكري الاجتماعي الغربي المادي الارضي الاستهلاكي الى وجدان المسلم ، (المرأة وتحرير المرأة) (في مجتمع مستعبد) الاسلام ناتج حركة التجارة المكية ، صراع القبائل ووعي الزعيم البطل (المذهب المحمدي) غريزية الانسان المسلم والدونية الحضارية ، لا تاريخ ولا سنن تاريخية ، تاريخ الغرب والدورة الحضارية تعني نهاية المرحلة الاسلامية و بداية مرحلة جديدة (اتباع الغرب) الحركة القومية ، ميشال عفلق البديل ، والبعث والرسالة الخالدة الى آخر منظومة الاطروحات الفكرية والسياسية والاقتصادية التي رماها الغرب في ساحتنا، وكون لها هتّافين (لطفي السيد ، قاسم امين ، طه حسين ، العقاد ، سلامة موسى ، الزهاوي ، رفاعة الطهطاوي ، شبلي شميل ، اسماعيل مظهر ، عبد الحميد الزهراوي الى آخر القائمة) !!

ظـل الاسلام مستعصياً وظل الاختـراق بـالمعيـار العلمي خارجياً على السطح . . استعصمنـا بالسلفيـة والحكم الشرعي والعداء لـلآخرين واليقـظة الدائمـة عند مجاري دمنا المسفوح وارضنا المستباحة .

في السلوك بلغ الاختـراق عمقـاً معينـاً وان ظلت هناك مقاومة ، ظل القطاع الأوسع من امتنـا منفصلاً عن الغـرب سلوكياً ، ومعـانـداً ، الـذين استسلمـوا وصلوا الى عنق الـزجـاجـة ، الى الأزمـة ، وهـم الآن متوترون ، يعودون الى الاسلام تباعاً . ورثة التغريب المنهجي من المثقفـين منهم المغتر وهـو يعلن تـوبتـه ، ومنهم مـا يسمى بلغة السيـاسة « عميـلاً » نبت لحمه واشتـد عـظمـه عـلى السحت الثقـافي فـلا نـطمـع في عودته ، ولكننا يوماً بعد يوم نمتثل للعـافية المنهجيـة ، نطرح قضايانا طبقـاً لمعاييـرنا وقيمنـا والأهم من ذلك كله ان العقـد قـد انحلت وتـوقف ابـن خلدون ، فحضـارة المغلوب ومنهجه يعـودان ليهيمنا عـلى فكـر الغالب ، فمن الغالب في النهاية .

﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾[1]

صدق الله العلي العظيم .

---

(1) المجادلة : ٨ .

٣ ـ العودة إلى خط الرفض والإحتجاج

هناك من المسلمين من يعمم مفهوم السنة لتشمل سنة أهل البيت (عليهم السلام) اضافة الى سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول بحجيتها ويلتزم بها ، دون أن يقيد ورودها بمقام التشريع قولاً أو فعلاً أو تقريراً . من هنا يرى هؤلاء أن الموقف السياسي لأهل البيت هو موقف ملزم ، بلحاظ أن المسألة السياسية هي مسألة شرعية . . . هي موضوع للحكم الشرعي ، وإن موقف اهل البيت من مسألة ما ، هو تبيان بالفعل أو القول أو التقرير لحكم هذه المسألة .

وهكذا يصبح موقف الامام علي (عليه السلام) الرافض لابقاء معاوية لحظة واحدة في ولايته على

الشام . دليلاً على عدم جواز اعطاء الشرعية للحاكم الجائر . ويصبح هذا الموقف تطبيقاً للمنهج الاسلامي في الاختيار بين الموقف المبدئي الاستراتيجي وبين الموقف التكتيكي (المصلحة) المباشر . . . والذي يرتكز الى اساس نظري مضمونه ان المصلحة الحقيقية هي في المبدأ وان ما يُدعى من مصلحة في المواقف التكتيكية . ما هو في الواقع الا انحراف عن المبدأ وتكريس لهذا الانحراف .

فلا شرعية للظلم والظالم .

ينهض على اساس هذه الرؤ ية خط سياسي يطابق بين المباديء الاسلامية وبين المواقف الاسلامية من السلطات الحاكمة يحاسبها على اساس ما في سلوكها وعملها من جور وظلم او عدل وأمن . . . والتزام بالقيم . . .

ميزة هذا الخط انه رأى في كثير من الصراعات التي تمت في التاريخ الاسلامي ، صراعات خارج قيم الاسلام . . . فلم يجد نفسه معنياً بها وانما استمر يصارع اطرافها على اساس من القيم التي يؤمن بها .

واستطاع هذا الخط من خلال السلوك الواضح ان يحفظ طموحه الاسلامي وعزتـه بالله والايمـان من ان تنكسر او تسقط في قبضـة الجـور لتبـرره او لتبـرر الاقتـراب منـه عـلى اسـاس حفظ بعض المصـالـح الدنيوية على حساب الدين .

وعندما كان يتاح لـطرف من الاطراف الجـائرة ان ينتصر على طرف آخر لم يكن الخط المبدئي يجد نفسـه ملزمـاً بتأييـد هذا الـطرف المنتصر وان كـان الطرف المنهـزم اكـثر جـوراً . ولا يلبث الـطرف المنتصـر ان يظهر المزيد من الجور والانحراف ليفوق الطرف البائد وليثبت ان الانحـراف لا يبـدأ لينتهي بـل ليتصـاعـد وينمو. . . ويجرف كل احتمالات العدل والاستقامة وأن البديل لهذا الطرف الجائر أو ذاك ليس هذا الطرف أو ذاك . . . بـل الاسـلام الصـافي المستقيم العـادل والامين .

وهكـذا واجـه الخط المبـدئي السلطة العباسيـة بنفس لهجـة الـرفض والاحتجـاج التي واجـه بهـا السلطة الأمـويـة . وقـدم دمـاءاً زكيـة عـلى طـريق المعارضة ، وقد اثبت العهد العباسي انه ليس اقل بل

هو أكثر إجراماً وافساداً من العهد الاموي وان من اغتروا به لم يكن اغترارهم الا لفقدانهم الرؤ ية المنهجية والالتزام المبدئي .

هذا الجانب من تاريخ أهل البيت ومريديهم يرى فيه كثير من المسلمين من غير القائلين بحجية سنتهم ، ومن المتوقفين بحجية السنة على مقام التشريع معتبرين ان المواقف السياسية هي خارج الاطار التشريعي يرون فيه سلوكاً اسلامياً صحيحاً ومطابقاً للاسلام وحقيقا بالاتباع لانه تجسيد للمنهج السياسي الاسلامي الصحيح .

ان هذا الخط وهذا المنهج يكثر أتباعه في هذا العصر بشكل واضح وسريع .

السبب في ذلك . هو الاسلام ، ان الذين تراخت قبضتهم على الاسلام وقيم الاسلام وتعاليم الاسلام في الماضي اكتفوا بالشكل الاسلامي بالشهادتين شرطاً للحكم والحاكمية وفصلوا بين الشهادتين وبين مضمونهما السياسي والاخلاقي وبقيت الهوة بين الشكل والمضمون تتعمق وتترسخ ، الى أن

وصل المسلمون الى حالة من القبول بالحاكم المسلم إسماً ، وأن كان عقله وقلبه يغترفان من العداء للاسلام ومن مستنقعات الكفر والطغيان .

واستمرت هذه الحالة الى حد ان وجد المسلمون انفسهم قابلين راضين بالحاكم وان لم يكن مسلماً أو كان يجاهر بالعداء للاسلام .

ولم يعد بعض الحكام مضطرين الى المجاملة باظهار تعاطفهم مع الاسلام أو المسلمين او الى العناية ولو جزئياً بمظاهر العدل او مضمونه .

هنا شعر الكثيرون بانه حتى الشكل الاسلامي صار الى الزوال . فأخذوا باستعادة وعيهم بالاسلام ووجدوا انفسهم بشكل آلي عائدين الى خط اهل البيت .

الى خط الرفض والاحتجاج والتمرد .

الى خط القطع الكامل والعنيف مع الحاكم الجائر .

وأفضت بهم هذه العودة المنهجية الى استعادة

طموحهم بحكم الاسلام ولم يعودوا مستعدين للمراهنة على مراكمة المصالح من خلال العلاقة بالحاكم الجائر انتظاراً للتغيير النوعي البطيء والمتدرج فأصبحت الانقلابية الاسلامية هي الطريق الوحيد الذي يضمن التصحيح حيث لا تصحيح الا بالثورة وامتلاك الزمام كاملا غير منقوص .

هنا بالذات وجد المسلمون اختيارهم وتميزهم عن المناهج الاخرى .

ان المناهج الاخرى هي مناهج مادية ذرائعية ليس فيها قيم ثابتة غير قيم الكم والمصلحة التي تضيق احياناً كثيرة الى حد يصبح معه التقلب والانقلاب على النظرية سهلا وميسورا ومبررا .

فالفكر الرأسمالي المحكوم بالمصلحة والمادة لا يجد مانعاً، وليس من شأنه أن يجد مانعاً، من الظلم او تأييد الظلم لانه منهج ظالم بالاساس .

وكذلك المنهج الماركسي .

والا فما الذي يبرر القتل في افغانستان . وما الذي يلغي التناقض بين المدعي الماركسي الشيوعي بالعدل وبين

الظلم الذي يواجهه الشعب الافغاني او الشعوب التابعة للاتحاد السوفياتي . . . ان الماركسية هي التي تحاول الغاء التناقض هذا .

وهي تملك الغاءه بحسب اسسها الايديولوجية المادية .

ما الذي يبرر للسوفيات ان يبدلوا موقفهم من حق تقرير المصير في ارتيريا الى مصادرة هذا الحق بعد مجيء مانغيستومريام الى الحكم ، وما الذي يبرر موقفهم التحالفي مع سياد بري ثم انتقالهم الى العداء للصومال والتحالف مع مريام .

وبالتالي ما الذي يبرر انتقال بري من الولاء للسوفيات الى الولاء لامريكا .

انه البحث عن ظالم حليف . . . لا البحث عن الذات او المنهج البديل .

ذلك ما يفسر بالتالي . . .

علاقات انظمة العالم بعضها ببعض ويفسر خلافاتها .

الصين ، السوفيات ، يوغسلافيا . . . الخ .

بينما يقف شعار لا شرقية ولا غربية مشروعاً استقلالياً كاملا لا ينحاز الى ظلم ولا يهادن ظالماً ولا يراهن على انحراف ولا يتوقع خيرا من منحرف ، تأكيداً للذات والمنهج مثبتا انه المنهج الاصوب والاجدر والاقوى على المواجهة .

٤ ـ العودة إلى المصطلح القرآني

في الحديث عن المنهج لا بد من التطرق الى مسألة اللغة . لا باعتبارها اداة ايصال محايدة بل باعتبارها تعبيراً عن الوعي بالمنهج ذاته والمنهج ـ لا ينفصل بحال عن الوعي به .

هذا حكم ينسحب على اللغات جميعاً ، وعندما يصل الى اللغة العربية يصبح اشد وضوحاً ، بلحاظ الاسلام وبلحاظ القرآن تحديدا ، حيث تمسي المبادىء ، مبادىء العقيدة والاهداف ـ المفردات الاساسية للمنهج ـ اشد اتصالاً وتوحدا مع التعبير اللغوي عبر الكتاب السماوي الذي كان وما يزال الجانب البياني في اعجازه ابرز الوجوه واظهرها ،

ولعل ذلك ما يفسر الهاجس الدائم - منذ نزول الوحي وحتى الان - لاعداء الاسلام في المواجهة مع القرآن على اساس اللغة من التفسير بالسحر الى محاولات المعارضة والتحريف الى المساس باللغة العربية نفسها عندما تحقق العجز عن المساس بالقرآن بشكل نهائي . . .

في هذه الدائرة تقع الدعوة الى الكتابة بالعامية وتحويلها الى لغات ثقافية والدعوة الى (التلتين)[1]. ان الدعوة الى (التلتين) كما هو معروف لم تقتصر على اللغة العربية بل طالت لغات اخرى لدى الشعوب المستضعفة كاللغة المالیزية والامهرية والسواحلية والمدغشقرية اضافة الى اللغة التركية . مما يعني انه ومن ضمن التصور الاستعماري لمستقبل العلاقة المطلوبة استعماريا بين هذه الشعوب وبين المراكز الاستعمارية لا بد من قطع هذه الشعوب عن ثقافتها الخاصة وتقريبها عبر الحرف الى ثقافة المستعمر بعد أن عجز الازدواج اللغوي الثقافي عن تحقيق الغاية المرجوة.

---

(١) التلتين : الكتابة بالحرف اللاتيني .

هذا صحيح وهذا يصدق على الحالة العربية من ضمن الحالة العامة للشعوب المستهدفة استعماريا .

ولكن تبقى هناك خصوصية للّغة العربية تجعل الاستهداف اشد الحاحا . . الخصوصية هي الاسلام والعلاقة الخاصة والمميزة للّغة العربية بهذا الدين والمستوى التعبيري العالي الذي وصل الى ذروته من خلال التناغم بين العربية وبين الاسلام فكرا وأدباً .

وإذا كانت الوحدة اساساً في الرؤية الاسلامية مطابقة للتوحيد في مستوى العقيدة فان الاسلام عبر القرآن يوظف اللغة في تهيئة الاساس الواعي لهذه الوحدة .

والوحدة الاسلامية مصدر خطر على المشروعات الاستعمارية فلا بد من ضرب اسسها على جميع المستويات ومستوى التوحيد اللغوي والعقيدي له صدارة في الاهتمام الاستعماري .

ذلك ما يفسر الاختيار المبكر للّغة كاللّغة التركية لاجراء عملية (التلتين) متزامنا مع اسقاط الخلافة واقامة الدولة العلمانية بعد الحرب الاولى والاتجاه الواضح نحو تغريب هذا البلد الذي مرت عليه

قرون وهو محور الاستقطاب في حركة المجتمع والتاريخ الاسلامي .

ان اليقظة التي تشهدها تركيا على الاسلام الآن تأتي متساوقة مع العودة الى التراث التركي المكتوب بالحرف العربي ومع الاقبال على اللغة العربية . .

وفي هذا الاطار تقع محاولة السلطات الشاهنشاهية في ايران في تخليص اللغة الفارسية من تداخلاتها العربية الذي ربما كان مقدمة على طريق (التلتين) الذي ربما كان اسهل على هذه السلطات من حاله في تركيا . لولا ان الاسلام كان وما يزال صعبا على الجميع .

حاولنا ان نؤكد خصوصية اللغة العربية المتأتية من خصوصية الاسلام بين غيره من الاديان والافكار .

وهذه الخصوصية ، خصوصية الاسلام او خصوصية اللغة ، تفترض فينا باستمرار ان نرفع جاهزيتنا لمزيد من الحفاظ على المستوى اللغوي في اهتمامنا .

وفي تقديرنا ان هناك تفسيرات شتى لتميز البناء اللغوي للقرآن وادبيات الاسلام وقد تكون كلها صحيحة ، ولكننا مضطرون الى تعميق وعينا للجانب الجمالي في القرآن على سبيل المثال .

حتى لا تضل رؤيتنا وفهمنا له منفصلا عن بعده الرسالي ، ليست المسألة مسألة ترف فني ، وكونه اعجازا راعى وطابق حالة عاصرها فان ذلك لا يلغي اهمية كونه اعجازا ثابتاً وخالداً وليس بعده التاريخي الماضوي هو الوحيد فيه ، مما يعني انه موضوع قائم باستمرار ولا بد من التعاطي معه ، وذلك يستدعي ان نعمق رؤيتنا له ونكشف الخلفيات المحتملة على الاقل والكامنة وراءه . وذلك من شأنه في النهاية أن يلزمنا بالسعي الدائم الى التطابق مع القرآن لغويا اي أن نبقى مشغولين برفع مستوى التعبير اللغوي في انتاجنا باعتبار ان هذا التطابق هو جزء من التطابق العقيدي غير منفصل وان شمولية الاسلام تستدعي ان يغطي عقيديا وتعبيريا مختلف المناطق والتطلبات في التكوين البشري .

والتطلب الجمالي تطلب اصيل ومشروع .. وعندما كان لا بد للاسلام ان يحرِّم جماليات الشكل غير المحكوم بالضوابط الايمانية والهدام في النهاية .. كان لا بد له ان يحرِّم فنوناً بعينها ولكن ذلك يستدعي تكثيف الاهتمام باشكال جمالية اخرى وتمتين ضوابطها الايمانية الربانية وتركيز ملامحها الفنية وخصائصها الجمالية .. من هنا جمالية اللغة في القرآن مدخل جمالي الى مناطق التحسس والتطلب في الفطرة البشرية .

ومن هنا .. التعبير اللغوي في القرآن وفي الاسلام ضافة الى جماليته هو عامل من عوامل الاهتمام لرسالي .. ان اللغة في الاسلام تأخذ موقعها ضمن منظومة الافكار والمبادىء والاهداف الرسالية ولا تنفصل عنها ، ومن هنا تأتي علاقتها الحميمة بالمنهج لتصبح ملمحاً اساسياً فيه .

هناك مستوى آخر للحديث عن اللغة وعلاقتها بالمنهج يبدأ من حيث انتهت اليه حالتنا اللغوية طبقاً للسعي الاستعماري التاريخي في اجتذابنا الى مواقع

ثقافته ومناهجه ، والحديث هنا عن المصطلح . . ويفترض استبعاد النظرة الميكانيكية الى اللغة . . ونحن لسنا ماديين وليس انغلاقاً ، ان ندعو الى الحذر بل الى الممانعة الشديدة والكاملة وايقاظ الحساسية من لغة الآخرين .

لقد تسربت الى لغتنا مصطلحات كثيرة ، تسربت مفردات ولكنها واعية بمعنى انها محكومة بمنهج محدد وسعي هادف وعندما تسربت حملت معها دلالاتها المنهجية فقربت البعض منا من مناهج الآخرين ووضعت البعض على ارضية تلك المناهج تماما .

الكلام في هذا المجال طويل . . واذا اردنا الاختصار يكفي ان نشير الى ان من انجازات الثورة الاسلامية في ايران ما لفت نظر الجميع وشكل لدى بعض الاسلاميين صدمة جعلتهم يستفيقون على وقوعهم في مصطلح الاخرين ومناهجهم ان الثورة الاسلامية عندما استعملت مصطلحات كمصطلحات المستضعفين قامت بتذكيرنا واعادتنا الى المصطلح القرآني المهجور في لغتنا ونبهتنا الى الكثير من

المهجورات ولاحظنا ان هذا الهجـران لم يكن هجرانـا لمفـردات بقـدر مـا كـان هجـرانـا منهجيـا . . لمنهج القرآن . . وذلك ما يفسر وقـوعنا في الاخـرين ثقافـة وسياسة وسلوكاً وقيماً .

وعندما نعود الى المصطلح القـرآني فان ذلـك ليس مجرد عصبية حضارية . . . انها عودة الى حالة التوازن والانبثـاق المنهجي والعلمي (لقـد ثبت بمـا لا يقبـل شكا ان التحليل الطبقي قاصـر ومضلل . .) من هنا العـودة الى مصطلحنـا ضرورة عمليـة وحياتيـة ايضـا وبـدونها لن يتحقق لنـا استقـلال ثقـافي وتلك مهمـة تحتاج الى جهد .

٥ ـ مسألة الفن

تبدأ الماركسية في اساسها النظري فلسفيا من موضوعية الكون وعدم وجود قوة خارجه اثرت فيه وإمكانية ادراكه ـ وبذلك تحدد هويتها المادية .

ثم تنتقل الى طرح جدليتها عبر تفسيرها لقوانين الوجود والتطور على اساس التناقض ومن خلال وحدة وصراع المتناقضات وباعتبار الماركسية فلسفة للتغيير كما يقول ماركس نفسه فهي لا تقف عند طروحاتها الفلسفية التفسيرية بل تحاول ان تضع نفسها في السياق التغييري ـ في سياق حركة المجتمع والتاريخ .

هنا تطرح المادية التاريخية باعتبارها التطبيق العملي للمادية الجدلية على حركة المجتمع والتاريخ . .

وبحسب الماركسية ، هي النهاية المرسومة بوعي لسياق المادية الجدلية . . هي الغاية .

هنا يطبق مبدأ وحدة صراع المتناقضات على الصراع الطبقي الذي يتحول الى مفتاح لفهم حركة التاريخ والمستقبل ومؤشراتها تمهيدا للتحكم بها والتأثير عليها وتسريعها وهذه هي مهمة الثورة حسب المنظور الماركسي .

والفنون والاداب هي مجال حيوي من مجالات الفعالية الثورية يفترض فيها حتى تسهم في عملية التغيير ان ترصد حركة المجتمع ـ صراع الطبقات ـ وتلتقط قوانينه ومؤشراته . . وتعكسه جدليا لتعود فتسهم فيه تطبيقا للعلاقة الحلزونية الشكل بين الفكر والواقع وأولوية الواقع في منظومة الفكر الماركسي .

هنا تتبلور نظرية الواقعية الاشتراكية في الآداب والفنون ماركسيا . تمييزا لها عن الواقعية الطبيعية التي تعكس الواقع دون ان تتحمل مهمة العودة للاسهام في تغييره ـ في عكسها لصراع الطبقات لا بد للآداب حسب الماركسية وحسب الواقعية الاشتراكية ، من ان

تنحاز . . تنحاز للطبقة العاملة وهي بـالأساس تكتب لها لتعلمها وتبصـرها بمـا يجري حـولها وتـرشدهـا الى تعميق نضالها عبر تركيز حقدها على الطبقات الاخرى . باعتبار أن الحقد الطبقي هـو المادة المتفجـرة في حركـة التاريخ . وهو الذي اذا انفجر غيّر المعادلة ونقل دورة الانتاج ـ وسائل وعلاقات ـ من يد طبقة الى طبقة . . هي الطبقة العـاملة في نهاية المـطاف ، حتى تصل إلى المجتمع الشيوعي اللاطبقي الذي ينعـدم فيه التمـايز الطبقي . . (هنا تصـل الماركسيـة الى أزمتها فلسفيـا الى تعطيل الجدل والحائط المسدود نظريا) ، وطالما ان الطبقة العـاملة على العمـوم طبقة مغلوبـة على أمـرها ومضطهدة ومستلبة واقرب الى الاميـة منها الى المعـرفة فـالمفروض في الأدب والفن الـذي يخاطبهـا وينشأ من أجلهـا ان يراعي هـذه الحالـة . . لغويـا . . مما يلزم الأديب الملتزم ماركسيا بالبساطة في التعبـير والوضـوح ويتنـاول نوعاً محدداً من المـوضـوعـات . . وهنـا تجـد الماركسية نفسهـا في ازمة اخـرى . . ازمة لهـا بعـدان البعـد الأول يأتي من ان الادبـاء والمفكرين الملتـزمـين بـالـطبقـة العـاملة والـذين يكتبـون لهـا هم في الاعم

الاغلب من خارجها فلا يصدق عليهم انهم اقرب الى الامية بل هم في مستويات ثقافية عالية ثم يضاف البعد الآخر في الازمة إلى هذا البعد ليشكلها . . البعد الآخر هو ان الاديب المثقف ذا الفكر الواسع والعميق لا بد أن يجد نفسه بمقتضى قوانين الادب والفن خارج قوانين المادية الجدلية وصرامتها والزاميتها . . لا بد ان يبدع ، والابداع يتعاوض قليلا او كثيرا مع التقييد ، والتقييد الفني في الماركسية يأتي من تحديد الموضوع وخط تطوره الندرامي المحدد سلفا بداية ونهاية وهنا تصبح الحرية معدومة وبدونها لا يكون ابداع . . . من هنا قد تغيب الطبقة العاملة عن وعي الكاتب اثناء انهماكه في انتاجه الفني ليذهب في اعماق الذات او الحلم . . وعندئذ يخرج على السياق المادي الجدلي . .

ان هذه الازمة اخذت كثيرا من وقت وجهد الماركسيين وتسببت في خسارتهم لكثير من الادباء والمفكرين . . وبعضهم حاول التوفيق من المثال الاول روجية غارودي ومن المثال الثاني غارسيا ماركيز غارودي في كتابه (واقعية بلا ضفاف) وهو كتاب

قـديم له والثـاني في روايتـه التي انـطلق فيهـا خـارج حدود الالزام المـاركسي مثل (خـريف البطريـك) و (مائة عام من العزلة) .

في كل ذلك وبالواقعية الاشتراكية الزاما او التزامـا يؤكد الفنان او الاديب الماركسي ماديته .

من هنـا تأتي لغتـه مجردة من الـروح . . كل ما هو روحي مغفـل في الجانب الـذي يخص الطبقـة العاملة من اللوحة او القصيدة او الرواية ، وما يسمى روحياً عنـد الاخرين انمـا هو غـطاء ايديولوجي قاصـر يتخذه ارباب العمل والبرجوازيون عموما لستر عملية النهب والاستلاب التي يمارسونها . . وما قد يبدو انه وجدان وتوهج في مشاعر الطبقة العاملة انما يـأتي من ماديتهـا من حقدها الطبقي على الاخرين واشواقها الطبقية الى الشيوعية وزوال الطبقات ودكتاتورية البروليتـاريا هنـا تعود اللغة لتمارس دورا في كشف ازمة من نـوع آخر فالطبقة العاملة التي تعلن مـاديتها تحت ضغط السلطة او تلصق بهـا المـاديـة لصقـاً من قبـل الحـزب (قبـل السلطة) . . طبقة تعيش تشكلها الروحي والوجداني

خارج أدوات التحليل ومناهجه المادية .

فان امتثلت للفكر الماركسي قسراً بالسلطة ، تحول المفكر ـ الماركسي او القائد ـ لينين ، ماو ، ستالين ـ الى اله مادي وتحول الحزب الى عقيدة ـ الى دين ـ و تحولت احلام الشيوعية الى آخرة الى يوم حشر تسقط فيها الطبقات الاخرى وتدخل الطبقة العاملة الجنة الموعودة .

وان استطاعت الطبقة العاملة ان تخرج على الاسر ، عادت الى روحيتها المطرودة . . البولونيون لم يعودوا يكتفون بالحضور الكثيف يوم الأحد في الكنيسة بل أصبحوا حريصين على الذهاب اليها بأعداد وفيرة يومياً، والمسلمون في آسيا الوسطى تعددت وما تزال اشكال تعبيرهم عن اعتصامهم بروحيتهم عبر اشكال تعبيرية من العلاقات والممارسات اليومية العبادية وغيرها .

وتدخل الماركسية فنونها وآدابها في ازمة اكثر تعقيداً عندما تظهر مزيدا من التحكم بايقاع الحياة وحركة المجتمع وتقضي على فرص التنوع والغنى فيها . .

حيث اصبح واضحاً ان ذلك ضروري للحياة نفسها على مستوى الفرد والجماعة معا وان الحد منه يؤدي الى اطفاء شعلة الحركة واخمادها وبالتالي فان الخروج على هذه الالزامية القاتلة لا يتم الا عبر فتح باب التبادل ، وبالتالي التنوع في العلاقات الاجتماعية مع ضبط الايقاع عبر ثوابت فكرية وسياسية لا يجوز ان تكون مقيدة وخانقة . . تكون محكومة بالحق والباطل والجور مفسحة للابداع ان ينمي دراميتها، بحسب الانظمة الشيوعية . . الصراع ليس معطلاً بل مقموع .

والدراما مخنوقة مكتومة الانفاس . . تقاوم ولا تموت ولكنها مقيدة ومثقلة . . فماذا يرصد الادب ؟

(سولجنستين) يحاول ان يخرج عن محيط الدائرة (دائرة المكتب السياسي والـ K.G.B) فتصيبه اللعنة ، وقبله كانت تلك اللعنة قد أصابت (باسترناك) في (دكتور جيفاكو) و (الدون الهاديء) واضطر الفيتوشنكو الى السكون والاندماج في (الحزب) .

بينما الآخرون مطفأون امامهم تاريخ الحزب

والسلطة السوفياتية يعودون اليها ليمجدوا وليكتبوا تاريخاً روائياً . . يشتمون من خلاله ستالين . . ثم يصدر بيان برد الاعتبار له . . فيضطرون لكتابة رواية ترد له الاعتبار . . . وهكذا .

هنا تعود مسألة الادب والفن ماركسياً الى احوالها الفطرية لا لتكون تعبيراً عنها في المجال الفني والادبي بل لتكون احدى محصلات الازمة في قاعها الايديولوجي .

اتت الماركسية في مدعاها بديلا للغرب الرأسمالي فلسفة وتاريخا وسياسة وادباً وفنا ، فهل سلمت من امراضه ؟ واضح انها استبدلت مرضا بمرض وليس المرض الماركسي الغربي في النهاية بأقل خطورة من المرض الغربي الرأسمالي ، لتقع في روحية مبتذلة جذرها واحد . . المادية . . مادية ماركسية تنفي الروح ومادية رأسمالية تستغل الروح ، تشيئها ، لتعود الروح فتلتف عليها وتخنقها . . .

بالنسبة الينا نجد الاسلام لا بينهما، لانه لا بين بينهما . . نجد الاسلام خارجهما منهجا وسلوكا . .

القطع مع الغرب

إشارات
الإعلام
النص الديني والحقيقة
مقارنة أولية للشأن الفلسفي ..
الحدث الإسلامي وضرورة التمايز الأدبي
التمايز الأدبي ... عود على بدء
الأدب الاسلامي
بين غضب اليمين وحنق اليسار
الوحدة والتجزئة
إشكالية البحث العلمي
الحالة الإسلامية .. إهتمامات نقدية
عاشوراء .. الحضور والتحدي

١ ـ إشارات

فيما نخطب ونكتب ، نشدد كثيرا على ان الغرب ، أثناء سعيه الى استعمارنا ، تيقن ان الاسلام هو العائق . ولذلك عمل ، وبأساليب شتى على ازالة هذا العائق ، أو تليينه لتمرير مشروعه . وقد نجح ، بنسبة أو بأخرى ، هنا وهناك وهنالك ، وظلت ازالة الاسلام كليا هدفا مستعصيا لاسباب تكمن فيه ، أي في الاسلام نفسه ، فارتضى الاستعمار بتطويع المسلمين وتدجينهم من خلال تغييب الاسلام مرة ومن خلال ابعاد المسلمين عن الاسلام مرة اخرى .

كل ذلك صحيح ، والتشديد صحيح ومطلوب ، ولكن المطلوب كذلك ، وبإلحاح شديد ، أن نعكف وبجدية رسالية ، على دراسة خط سير العمليات الاستعمارية التي استهدفت الاسلام والمسلمين والعلاقة بينهما . لا باعتبار الاسلام فكرا مجردا ، بل بما هو واقع ماثل تاريخا ومجتمعا وفعلا وحركة ، وباعتباره الاطار الذي تشكلت داخله وعلى اساسه شخصيتنا الحضارية المتميزة ، والتي كان هدف الاستعمار وما يزال تدميرها .

ان الانصاف يقتضي منا ان نقر بأننا أولينا جهدا مشكوراً لدراسة عمليات الغزو العسكري على سبيل المثال . ولكن هناك نقصا في هذا الحقل ما زال قائما ، فدراساتنا في هذا المجال /العسكري/ ، لم تستكمل ، وما استكمل منها ما زال يعاني من خلل يتمثل منهجياً في اعتمادنا على المصادر الغربية المعادية في الكثير من دراساتنا .

لا بد ان يكون قد ترسّخ لدينا الاقتناع ، بأن العملية الاستعمارية في الجملة ، ما زالت متصلة

ومتواصلة ، ولن تتراجع او تنكفىء الآ بفعلنا ، وانه من العبث ان ننتظر أو نراهن على يقظة للضمير الامبريالي يعقبها تعديل في المنهج والهدف لصالحنا . فالمسألة ليست مسألة ضمير غائب أو نائم ، بل هي طبيعة الامبريالية وتركيبها الداخلي ، التاريخي والفكري ، والذي لا يتغير في نمط تعامله معنا الآ بفعلنا ، وسوف يظل عدوانيا تجاهنا حتى نحرز امكانيات الحد من عدوانيته .

اذا اتفقنا على الانطلاق من هذه القناعة ، فلا بد ان يكون لنا الى جانبها افتراض بأن التواصل في العملية الاستعمارية قد اقتضى ويقتضي لونا من التمويه للبواعث والأهداف والتعتيم على حدود ومعالم المسار التاريخي للحدث الاستعماري على طول تاريخ الاستعمار ، الحديث والقديم . الهدف منه ، أي من التمويه والتعتيم ، هو منعنا من الوصول الى تكوين فكرة شاملة وواضحة عن العملية الاستعمارية تكون اساسا في التصدّي لها وانهائها .

ان ذلك ، أي التصدّي ، يقتضي منا ان نجهد في

ازالة التمويه واضاءة التعتيم ، حتى نكون على بصيرة من أمرنا . هنا يتبين لنا ، كم كنا مقصّرين وواقعين في قبضة اعدائنا عندما مكنّاهم وصنائعهم بين ظهرانينا من الجائنا على العودة الى مصادرهم التأريخية في سعينا لقراءة وتقييم مراحل دقيقة ومحطات أساسية من تأريخنا . لقد أتيح لنا حقا ، ان نفتح عيوننا واسعةعلى الجهد الاستعماري الأستشراقي الهادف ، عندما تصدّى لاعادة كتابة التاريخ الاسلامي في عصوره الاولى طبقا للمنهج المعادي وخدمة لأهداف الأعداء . لقد توفرنا فعلا على الكشف والتفنيد والتصحيح ، وأبلينا في ذلك بلاء حسنا ، حدّ من تسرب الكثير من أفكار المستشرقين المسمومة الى ذهنية الأمة ، وان لم يمنعها منعا تاما ، وذلك لا يقلل من قيمة الجهد ونتائجه .

اذا نقلنا المسألة الى صعيد التاريخ الحديث ، أو الوسيط والحديث معا ، أي منذ دخول الغرب على خط العداء والمواجهة لديننا وأمتنا ، أي بدء الحروب الصليبية تحديدا وما تلاها . . اذا نقلنا المسألة الى هذا الصعيد ، تبين لنا مدى التقصير ، والتقصير يستلزم

ويستتبع القصور ، لأن المعرفة شرط المواجهة ونجاعتها .

فيما يخص هذه المرحلة ، أي مرحلة الحروب الصليبية ، يلاحظ ان المصادر المتداولة والتي تتم العودة اليها هي اما مصادر غربية خالصة ، مترجمة أو غير مترجمة ، واما مصادر عربية او غير عربية تستقي من المصادر الغربية وتعتمد عليها في المنهج والمفردات . وحتى نتبين سلبية هذا الاعتماد لا بد أن نرى في أي حالة يعود العربي أو المسلم بشكل عام الى المصدر الغربي ؟ ان ذلك يتم في احدى حالات ثلاث :

١ ـ الحالة الاولى : هي أن يكون الباحث العربي أو المسلم تلميذا للغرب ، فيكون تعاطيه مع الموضوع يخضع لوحي استاذه ورغباته وارادته ورقابته . . والأستاذ الغربي الحديث مشغول باستكمال الأهداف الصليبية ونقل قيمها الى الأمة من جديد ، وهنا يكون قصارى عطاء مثقفنا التلميذ الباحث هو أن يستجيب مضيفا الى السلبيات ما توفره له خبرته بمجتمعه وأمته ويخرج عن قدرة أستاذه . لنتذكر هنا وعلى سبيل

المثال ان كثيرا من الافكار المسمومة التي تكفل بعض المتغربين منا بتعميقها وتوسيعها ونشرها بعد ان أثارها أساتذتهم الغربيون وواجهوا الحرج في التوسع فيها ونشرها لما تثيره من ممانعات اسلامية ، فاتخذوا من تلامذتهم قنوات ايصال كانت في كثير من الأحيان وفيّةً لهم وعبرت بواسطتها أفكار الأعداء ، انكشف بعضها وسقط وكثير منها ما يزال ساري المفعول يحتاج الى كاشف . . مثال ذلك : فكرة « مرجليوث » حول الأدب الجاهلي التي قدمها مدخلا للتشكيك في القرآن من خلال ضرب المقياس البلاغي الذي يتم الاستناد اليه في اثبات الاعجاز . لقد تلقف طه حسين الفكرة وعمقها ووثقها بعد سنة واحدة من اطلاق مرجليوث لها . . . وغطى طرحه لها بمنهجية فكرية غربية (المنهج الديكارتي)[1] .

٢ ـ الحالة الثانية : هي أن الباحث العربي أو المسلم يتعامل مع المصدر مباشرة في لغته الأصلية أو

(١) يمكن العودة فيما يخص هذه المسألة الى كتاب :
« الظاهرة القرآنية » للمرحوم الأستاذ مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين .

مترجما دون استعداد للنقد ومن موقع الدهشة بالأفكار والوقائع وحينئذ يتحول الى مبشر بهذه الافكار التي يعتبرها اكتشافا . . وكم شاهدنا ونشاهد من مثقفينا من ينفشون ريشهم في مواقع القول ويسردون عن ظهر قلب مطالعاتهم في المصادر الغربية وكأنهم مكتشفون لمجاهل في الفكر والتاريخ حالت ظلمات التخلف في الأمة دون الوصول اليها . نستطيع أن نعدد نماذج قليلة خرجت على هذا السياق وتوغلت في الغرب فكرا وأدبا وعادت لتتلمس شواهد الخلل في بنيته وزيف هذه البنية وعدوانيتها (الدكتورشريعتي ،جلال آل احمد ، سيد قطب ، السيد جمال الدين ، مصطفى كامل ، شكيب ارسلان ، وغيرهم) ومن القطيع الاول نستطيع أن نضيف الى طه حسين قائمة طويلة تبدأ من سلامة موسى ، وتمر بقاسم أمين ولا تنتهي بعبد الله العروي أو قسطنطين زريق ليبرالياً وقومياً ، ولا بالطابور الطويل من التغريبيين الماركسيين ، بل تبقى مفتوحة على المستقبل .

٣ - الحالة الثالثة : قد يكون الباحث مصمما على التعاطي النقدي مع المصادر الغربية في دراسته للحروب الصليبية مثلاً ولكن تنقصه أدوات النقد وشروطه ، فلا يتهيأ لنقده أن يكون متماسكا وعلميا . ان أسباب هذا النقص كثيرة ولعل من أهمها ان الحروب الصليبية متضمنة في مصادر التاريخ العام لدينا . أي في المطولات التي لا يتأتى الرجوع اليها الاّ للباحثين المختصين وقد قلّ الباحثون لدينا منذ ان دخلت الجامعة الغربية الحديثة ودخلنا فيها لنتحول من باحثين منتجين الى متلقين ومبشرين . وعندما يعود باحثنا الحديث الى هذه المصادر يعود ضمن منهج رسمه له سلفا أستاذه الغربي ، لا يحيد عنه ولا يتعداه .

ثم ان الرجوع الى الموضوع في المصادر المطوّلة ، يحتاج بعض الاحيان الى كون الموضوع نفسه مثار اهتمام . وذلك لا يتم الاّ عبر التيسير[1] أي عبر

(١) يقول الياس مرقص « ليس من الممكن ولا من الضروري او المفيد ان يقرأ عشرات الألوف من الناس كذا مجلد من تاريخ=

اقتطاع الحروب الصليبية محوريا من المطوّلات وتعميمها .. وكذلك غيرها من الموضوعات . في مصادره عن الحروب الصليبية يعمل الغرب على تصوير المسألة على انها عملية استعمارية (نظيفة) استدعتها الثروات الطبيعية المهدورة بسبب تخلّف شعوب المنطقة . ولا بد من استثمارها لصالح البشرية ، وفي الدرجة الأولى لصالح أصحابها الاصليين .. وتلك عملية كان لا بد منها لان التطور العلمي والصناعي في الغرب قد بلغ درجة من التعقيد والاحتياج الى المواد الأولية بحيث اذا لم يلبّ احتياجه فانه يهدد العالم أجمع بكارثة سوف تتضرر منها وبها الشعوب الأخرى قبل الغرب .

نحن ندعي ، ان البعد الاقتصادي في العملية ، متوفر ومهم ، ولكنه ليس أساسا .. الأساس هو

=ابن الأثير مثلا ، لكن من الممكن والضروري ان يقرأ عشرات او مئات الألوف من الناس كتاب مختارات من هذا التاريخ ، وهكذا الأمر بالنسبة لعشرات ومئات اخرين » أضيف الى ذلك تساؤلا عن مدى الاستفادة من موسوعة البحار للعلامة المجلسي ؟ وكيف يمكن الاستفادة منها وهي غير قابلة للتداول بسبب صعوبة اقتنائها بسبب غلائها .. وهكذا .

الاسلام . العدو الحضاري المانع من تحقيق ما تبقى من أهداف والذي اذا ترك ينمو ويمتد فانه سوف ينتقل مرة ثانية الى تهديد حضارات أخرى بالحلول محلها .

هذه الفكرة المدخل ، نحن بحاجة الى تعميمها لأكثر من سبب ومن بين الأسباب التي تدعو الى ذلك جعلها مدخلا لدراسة المرحلة وأرضية لنزعة القطع والتمايز عن الغرب بلحاظ العداوة الحضارية الثابتة . ان تعميم وقائع الحروب الصليبية ، عسكريا وسياسيا وثقافيا واجتماعيا وحدها تكفي لاثارة هذا الهم وهذه الرؤ ية وتعميمها ، ومن ثم يصبح بامكان الدراسة المعمقة والتحليلية أن تجد لها حالة عامة تتلقاها بالهضم والاستيعاب .

ان هذا المدخل يوفر لنا رؤ ية الظروف التي استفادت منها الحروب الصليبية في تحقيق ما حققته من نجاحات . وكيفية التغلّب على هذه الظروف فيما بعد ، وعبر مرحلة طويلة من المعاناة والتعقيدات حيث نرى ان حالة التجزئة القاسية والذميمة التي عاشتها الأمة الاسلامية تأسيسا على منهجية الثورة

المضادة التي مسّت موقع الاسلام كجامع موحد وقدمت المبرر الأيديولوجي والسلوكي والسياسي للتجزئة . . حالة التجزئة تلك كانت مدخل الحروب الصليبية وشكلت شرط نجاحاتها . . وقد كانت الحملات الصليبية تسير بطمأنينة كاملة طوال الفترة التي كانت فيها قضية الوحدة مستبعدة وغير مطروحة ، بل ان الحروب الداخلية التي كانت تستمد من التجزئة وقودها لتعود فتعمق هذه التجزئة ، ظلّت هي السائدة الى ان توفر للأمة من أعاد المسألة الى نصابها وطرح الوحدة بديلا للتجزئة وقاعدة للمواجهة ونفذها طوعا وكرها لأنها أمست ضرورة وجودية واختيارا اسلاميا وحيدا . . هنا تبرز شخصيتا « عماد الدين زنكي ونور الدين محمود زنكي » وهنا أيضا يسترعى الانتباه في مصادر الغرب وما أشاعه في ثقافتنا من ثانوية هذه الشخصية وتقديمها كما لو كانت هامشية وغير فاعلة . بينما تتمتع شخصية صلاح الدين الأيوبي بحضور كثيف في المصادر الغربية التي تصوّره خصماً وحيداً وعنيداً ولكنه فارس بالمقاييس الخاصة للفروسية الغربية .

ألا يسترعي انتباهنا وحذرنا ما لاحظناه من تشويه متعمّد من قبل الأعداء وصنائعهم للسلطان العثماني عبد الحميد ؟ . . ألم تنطل علينا لعبة المستعمر ؟ ألم يتحول عبد الحميد في كلامنا وتصوّرنا الى مثال منحط للتخلّف والرجعية ؟ ثم تأتي الوقائع لتكشف ان هذه الصورة المعطاة وراءها سبب جوهري هو تمسك عبد الحميد بالوحدة الاسلامية وصموده في وجه الحركة الصهيونية[1] ولعل موقف السيد جمال الدين من عبد الحميد في سنواته الأخيرة يؤكد ان السيد جمال قد اكتشف المفارقة فعاد ليكون قريبا من عبد الحميد

---

(١) « . . انصحوا هرتزل بألّا يتخذ أي خطوات في موضوع اقامة جامعة عبرية في القدس . . اني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض ، فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي الذي ناضل في سبيلها ورواها بدمه . فليحتفظ اليهود بملايينهم ، واذا مزقت بلادي يوما فانهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، أما وأنا حي فان عمل المبضع في بدني بلا مخدر ، لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من بلادي وهو أمر لا يكون . اني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن أحياء » .

« السلطان عبد الحميد الثاني »

وناصحا ومعجبا بمبدئيته في النهاية[1] . اننا هنا لا نعطي صك براءة ولا ضمانة لدخول عبد الحميد الى الجنة ، ولكننا نؤرخ أو ندعو للتأريخ .

لقد كانت طبقات الغبار الغربي التي غطيت بها شخصية عبد الحميد تريد أن تحجب الرؤية عنا لنعمى عن مرحلة ما بعد عبد الحميد ، مرحلة الاستعمار والتغريب والتجزئة . . مرحلة أتاتورك والأتاتوركيين .

لنحاول أن نذكر أو نتذكر ، أن تحرير ديار الاسلام من الاحتلال الصليبي قد استكمله سلاطين

---

(١) « ان السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة . . ولا عجب اذا رأيته يذلل ما قام في ملكه من الصعاب من دون الغرب ويخرج المناوىء له من حظيرته راضياً عنه وعن سيرته . . »

« السيد جمال الدين »

أتصور السيد هنا يتحدث عن غيره وعن نفسه كذلك خاصة اذا تذكرنا ان السيد عاد الى الاستانة ليكون الى جانب السلطان بعدما رأى بعينه مؤامرة الغرب ضده ، ولكن بعض مراكز القوى حالت دون الاتصال المثمر بينهما وعاجلت المنية السيد وعاجل الغرب ديار الاسلام ونجحت المؤامرة .

المماليك الذين أغمط حقهم مثل نور الدين[١].

هناك مفارقة تاريخية أخرى لا بد من محاولة كشفها .. فنحن نعرف اجمالا وتفصيلا، بالوقائع والوثائق، ان المستعمر من ضمن سعيه الى التجزئة كممهد للسيطرة، لم يهمل مستوى من مستويات التمايز داخل الأمة الاسلامية الّا وحاول ايقاظه وتضخيمه، من مستوى التمايز العرقي الذي هزه التاريخ، الى مستوى التمايز المذهبي الى غير ذلك .. احدى العمليات التي خاضها في هذا المجال، كانت محاولته المستمرة اظهار اتباع مذهب اسلامي أو آخر بمظهر المتفاهم معه على قاعدة الحساسيات المذهبية التي يسهم هو في تربيتها .. من هنا حاول الغربيون في مصادرهم ومناصروهم العرب من مسلمين ومسيحيين معهم ان يوحوا بأن هناك قدرا من التفاهم الشيعي الصليبي .. لا أريد أن

---

(١) وبالتحديد، واكثر من غيره السلطان خليل بن السلطان قلاوون، من سلاطين دولة المماليك البحرية الذي اكتلمت مسيرة التحرير بفعل الأمة في عهده وقيادته حيث تم تحرير آخر معقل صليبي في مدينة عكا عام ١٢٩١ ميلادية.

أطيل هنا ولكن ألفت النظر الى ان الصليبيين لم يكن باستطاعتهم الدخول والاستقرار هذه المدة الطويلة لو لم تكن هناك ظروف داخلية تساعدهم . ولكن المسألة هذه لم تكن ذات طابع مذهبي خاص ، والاّ فان حاكم دمشق الذي تعاون مع الصليبيين لم يكن شيعياً .. في حين ان طرابلس الشام قد حاربت الصليبيين ثماني سنوات وهي شيعية . وقاعدة صلاح الدين /مصر/ كانت شيعية وهو نفسه كان تحت امرة الحاكم الفاطمي الذي ما لبث ان خرج عن طاعته بعد ان استقر أمره فخلعه ودعا الى الخطبة للحاكم العباسي الذي كان بعيدا عنه وضعيفا بحيث يمكن لصلاح الدين أن يحكم بمعزل عنه .. وفي هذا المجال هناك كلام عن شيعة جبل عامل . نحن مدعوون الى التحقيق فيه[1] .

---

(١) « .. ثم إن جمال الدين صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان ـ اثناء حصار دمشق ـ وطمع زنكي حينئذٍ في البلد وزحف إليه زحفاً شديداً ظناً منه انه ربما يقع بين المقدمين والأمراء خلاف فيبلغ غرضه ، وكان ما أمله بعيداً . فلما مات جمال الدين .. جاء بعده « مجير الدين أبق ولده » وتولى تدبير دولته « معين الدين أنزا » فلم يظهر لموت ابيه مع أن عدوهم

اننا حين ندعو الى انصاف عبد الحميد لا يفوتنا أن نؤكد ان ذلك موقف موضوعي اسلامي ينظر الى مصلحة الاسلام . ولو كان المنظور مذهبيا لاستدعى موقفا مغايرا ، اذ ان ظلم الشيعة عثمانيا قد بلغ ذروته

=على باب المدينة فلما رأى أنزا ان زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن مصرهم راسل الفرنجة واستدعاهم الى نصرته وأن يتفقوا على منع « زنكي » عن دمشق وبذل لهم بذولاً من جملتها ان يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها اليهم وخوفهم من « زنكي » ان مَلَكَ دمشق . فعلموا صحة قوله : إنه ان ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال «زنكي» . . . فحين علم زنكي بذلك سار الى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الفرنج قبل ان يجتمعوا بالدمشقيين . فلما سمع الفرنج لم يفارقوا بلادهم . فلما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل « بعذرا » شماليها سادس شوال فاحرق عدة قرى في المرج والفوطة ورحل عائداً الى بلاده . . . ووصل الفرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي فنادوا فسار معين الدين أنزا الى بانياس في عسكر دمشق وهي في طاعة زنكي كما تقدم ذكرها ليحصرها ويسلمها الى الفرنج وكان واليها قد سار منها في جمع جمعه الى مدينة « صور » للإغارة على بلادها . . . فنازلها ـ أي بانياس ـ معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فأخذها وسلمها الى الفرنج=

في عهـد عبد الحميـد . ولو كنـا مذهبيـين لما دعـونـا لانصاف نور الدين محمود ، الـذي كان متعصبـا ضد الشيعة .

اذن من مـوقع اسـلامي أيضا ، نـدعو الى اعـادة النظر في اجراءات صلاح الدين حيث نفترض ، دون افتقار الى المؤيدات والأدلة ، ان موقف صلاح الدين من الأزهر والحركة العلمية في مصر . . حيث صفّاهـا بقسوة ، وحوّل الأزهـر الى مسجد عـادي كما لـو كان زاوية من زوايا العبادة في قرية في صعيد مصر . . قد حرم مصر والأمة الاسلاميـة عامـة من ثمرات علميـة وفكرية كانت مزدهرة . وليست تلك دعوة للإنتقاص من جهوده على طريق التحرير .

وليس هـذا الموقف مـذهبيـا ايضـا ، لعلمنـا بـأن

=ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ . ج ١١ص ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ دار صـادر ـ دار بيـروت ١٣٨٦ ـ١٩٦٦ . وفي نفس المصـدر ص ٣٣٦ ج ١١ في أحداث سنة ٥٦٤ : « وكان جماعـة من أعيان المصـريين قـد كاتبـوا الفرنـج ووعدوهـم النصـرة عـداوة منهم لشاور . . منهم ابن الخياط وابن مـزجلة فقوي جنـان الفرنـج وساروا من بلبيس الى مصر ».

الأزهر لم يكن جامعة شيعية ، بل كان جامعة اسلامية ، يتوافد اليه الطلبة من اقطار الاسلام كافة ، كل على مذهبه ، ولكن الأزهر شكّل المناخ العلمي للتفاعل والتواصل والوحدة . لقد كان موقف صلاح الدين هذا آتيا من طموحه السياسي والسلطوي . . فاذا ما اتجه الى الحاكم العباسي وخلع الحاكم الفاطمي فانه لا بد أن يضرب القاعدة الفكرية والثقافية في مصر ، التي ربما شكّلت عائقا في وجه استفراده بالحكم .

ان كل ما قلته حتى الآن توخيت فيه أن يكون مثيراً لإعادة دراسة فترة الحروب الصليبية بمنهجية اسلامية ورؤ ية اسلامية هادفة بعيدة عن ارادة الغرب وفكره ومنهجه وغاياته . . على ان هناك قضايا ومسائل كثيرة مماثلة لا بد من دراستها انطلاقا من طموح مشروع في تأسيس منهجية اسلامية اصبحت المرحلة تقتضيها بما تتضمن من انتصارات تلقي على عاتقنا مهمات جديدة ، ومن محاولات استعمارية

جديدة تستدعي أن نكون أكثر حذرا وأن لا يقتصر حذرنا على ناحية دون أخرى .

آذار ١٩٨٣ .

٢ ـ الإعلام

لقد اصبح بمستطاعنا ان نتصور ، بواقعية ، مؤشرات النهاية الفعلية للعملية الطويلة ، المعقدة ، والقاسية التي قام بها الغرب لاستعمار الشعوب المستضعفة ، استناداً الى حالة الممانعة الكامنة في هذه الشعوب ، والتي تنتظر المحفزات لتتحول الى حركة استقلالية .

صحيح ان قابلية الاستعمار ، كانت وما تزال شرط نجاح العملية الاستعمارية حدوثاً ودواماً ، ولولا توافرها بنسبة او باخرى ، لما توفر للغرب اي نصيب من النجاح في مسعاه . ولكن حركات

الشعوب المستضعفة في اتجاه الاستقلال ، اثبتت ان الحكم بعمومية هذه القابلية وديمومتها ، كما لو كانت بعداً طبيعياً ثابتاً ، في بنية الشعوب المستعمرة (بالفتح) وفي تكوينها النفسي والاجتماعي . . ان تلك الحركات اثبتت ان هذا الحكم ينطوي على قدر كبير من المجازفة ، وان هذه القابلية حادثة وطارئة عمل الغرب ليبرر استعماريته على ترسيخ وهم بانها عضوية واصيلة . ان حالة الممانعة الكامنة ، لا تكفي وهي في حالة الكمون المحض كشرط للحركة ، بل هي تعتمد على المحفزات ، وتستدعي لوناً من الضمانات النضالية بعد التحفز لتؤتي ثمارها المرجوة .

واذا كان صواباً ان ننتظر يوما يصبح فيه الغرب عرضة لاخطار التدمير البنيوي الذي عمل على تحقيقه في الشعوب المستعمَرة (بالفتح)،باعتبار ان ذلك مسألة حتمية يسير المجتمع والتاريخ الغربي نحوها قسراً ، والشواهد على ذلك كثيرة .

فاننا لا يجوز لنا ان نتنكب طريق التاريخ ،

نستظل اشواقنا واحلامنا طويلا ، حتى تأكل العملية الاستعمارية صانعيها وادواتها ، لاننا بذلك من المحتمل ان ندخل انفسنا مع الغرب في حالة تعرض لتدمير شامل .

ان خيارنا الحضاري والوجودي بالمنظور الاسلامي ، وبمقتضى ارادة الحياة والكرامة ، ان نسرع حركة الممانعة الكامنة لتحويلها الى حركة باتجاه الاستقلال ، وذلك بالبحث عن المحفزات وتنشيطها .

ان حالة الممانعة هذه تقوم لدى الشعوب على اساس من التنافي بين المستعمِر (بالكسر) والمستعمَر (بالفتح) هذه السلبية في طبيعة العلاقة بين الطرفين تستدعي ، لتصبح فعلا ثوريا استقلاليا ، قاعدة تحتضنها . . من هنا ، تقع بعض الشعوب المستعمرة (بالفتح) في خط الاستعمار ، عندما تفقد القاعدة التي توظف سلبية التنافي على طريق الاستقلال الحقيقي . .

تلك كانت ازمة الشعوب التي اختارت الفكر القومي او الماركسي ، قاعدة لخوض عملية تحررها من

ربقة الغرب . فاخرجت ايديها من هذه الربقة لتدخل اعناقها فيها . !

هذه المفارقة لا تتحدى العالم الاسلامي والأمة الاسلامية ، اذا ما توفر شرط الوعي بالذات الاسلامية ، اذ في حالتنا تتوفر لسلبية التنافي القائمة ، ايجابية تتكامل بها ومعها لتتحول الى فعل تاريخي كامل . « اعني الاسلام الذي يقدم نفسه بديلا حضاريا كاملا » . . وعندما تصور الغرب ان الاسلام قد طويت صفحته نهائيا ، اتاح له ان يتنامى ويواصل عمقه في بنية الامة من خلال ارادة الرد على التحدي . . . ليفاجىء الغرب ويربكه .

ولعل ذلك هو مصدر الفرادة والامتياز في الثورة الاسلامية في ايران . انها مواجهة للمشروع الغربي على قاعدة مشروعها الاسلامي .

لذلك احدثت ارباكا في البداية وحيرة ، لتتحول من بعد الى حافز ادى الى حل بعض ما كان يبدو عقداً تاريخية ، فعلى طريق معاداتها ومعاندتها باعتبارها قابلة للتعميم والامتداد .

تصالحت القومية العربية مع القطرية ، وتصالحت التقدمية مع الرجعية العربية ، وتصالحت القومية العربية مع الصهيونية ، ونشطت مسيرة الوفاق الدولي . . ولكنها في كل حال رسخت قناعة لدى الجميع مؤداها ان الاستقلال عن الغرب امّا ان يكون شاملاً او لا يكون . وانه لا يتم الاّ على اساس القطع الكامل مع الغرب ، والخروج على الاستقطاب الدولي ، الشرقي والغربي ، وان اي خروج من الغرب من منظور مغاير لهذا المنظور ، هو دخول فيه من جديد .

تلك هي القاعدة النظرية الذهبية التي قامت عليها الثورة الاسلامية في مرحلتها ومثالها الايراني والتي ما تزال ايران الاسلام مشغولة بتحويلها الى وقائع في العمل والفكر والسلوك . وقد انجزت ايران الاسلام كثيراً على هذا الطريق . وما زال لها من شيوع الاسلام عقيدة وشريعة في وجدان اهلها ، ومن رسوخه في فكر قيادتها ، متسع لان تستكمل عمليتها الثورية الاستقلالية . . . ذلك مما جعل القوى المستكبرة تستنفر ضدها ، وتحاول اعاقة تقدمها

وانجازاتها ، لانها بذلك ، بالاستكمال تبلغ ذروة الخطر .

ان عملية التحويل الثوري الاسلامي في ايران تسير في مستوى ادارة عملية الانتاج ، وفي مستوى التشريع ، وفي مستوى الثقافة والتربية ، ومن ثم في مستوى الحياة اليومية . . وصولاً الى المستوى العسكري .

هل يعني ذلك ان نطمئن ؟

ان الاطمئنان مطلوب لانه يشكل مناخاً مؤاتيا للاستمرار . . وهو موضوعي بمعنى ان مناشئه ودواعيه متوفرة . ولكن المطلوب كذلك هو ان لا نبالغ في الاطمئنان ، لان ذلك هو مصدر الخطر الحقيقي ، لا بد ان تبقى عيوننا مفتوحة اذا كنا ندرك قيمة ما انجزناه وخطورته المستقبلية . لا بد ان ننشغل بالكشف والمكاشفة ، ان نعمل ضمن برنامج يومي لاكتشاف مواقع الاختراق الغربي لكياننا . . وندل عليه لتتحول الدرشة الثورية نحوه .

نفتح عيوننا في اي اتجاه ؟ باتجاه الخارج قطعاً . .

ولكن اكتشاف خطوط وعمليات الغرب المعادية في الخارج ، ماذا يعدلك ، وماذا يقال عنك ، وكيف تحبط الاعداء ، او ترد كيدهم .. ذلك امر سهل نسبياً .. انه الجهاد الاصغر ..

الصعب ، هو الداخل .. لا ما يعد في الداخل ، ان ذلك شأن امني ، لا ندخل فيه .

ان فتح العيون باتجاه الداخل نقصد به ان نحاول استنفار كل اشواقنا ، وارادتنا في التمايز مع الغرب ، لنرى ما اذا كان هناك زاوية في بنياننا الاجتماعي ، والفكري ، والاقتصادي ، قد اختبأت فيها جراثيم الغرب . قد يخرج الغرب من زاوية ما ، بالإسم والعنوان ، ولكنه يبقى في الاسلوب .. على اننا هنا لا نريد ان نمس النوايا ، وهل في ذلك مبالغة ؟ الا تبدو هذه الدعوة الى القطع الكامل مع الغرب ، الى استنفار كل القوى لاكتشاف زوايا الغرب لطرده منها .. نوعا من المثالية المتشنجة ، المتأتية من حساسية مفرطة ؟ وهل يمكن تطبيق هذه الدعوة تطبيقاً كاملا بدون مخاطر ومحاذير كبيرة ؟!!

٧

ليست الدعوة الى القطع مع الغرب قطعا كاملا انفعالا معاكسا للدعوة الى الاستسلام والذوبان في الغرب . . ان هذه دعوة ساقطة موضوعيا ومستحيلة التنفيذ . . اننا ندعو الى التمييز بين مستويين من حضور الغرب في واقعنا كشعوب مستضعفة تعرضت للعملية الاستعمارية التي اصابت قدراً من النجاح ، وكان لا بد لها ان تمارس نوعا من التعطيل لامكانياتنا في الفكر والعمل ، لتفرض علينا انتاجها في هذين المجالين .

هنا امران اذن . . الانتاج المادي ، والمنهج .

في مستوى الانتاج المادي ، تعامل الغرب المستعمر معنا كما تعامل مع شعوبه المستضعفة . . فقد ركز من خلال غزوه لنا على محاولة استلابنا بالتركيز على حاجات ثانوية لتحويلها في تصورنا وحياتنا الى حاجات عضوية تتطلب اشباعا ، والاشباع يقتضي الغرب ، ولكن ذلك لم يكن ليتأتى له بدون استلابنا ثقافيا ، اي اخراجنا من منهجنا المتطابق مع تطلباتنا الى منهجه المتطابق مع احتياجاته ، والاحتياجات التي يريدها لنا .

هناك بعض المنتجات الغربية المادية التي تـدخل في قـائمة الضـروريات في الغـرب ، وتدخـل عنـدنـا في قائمة الكماليات او ما فوق الكماليات ، ولا شك ان عودتنا الى منهجنا سوف تطرحها من قائمة متطلباتنا . ولكن هناك منتجات استـطاع الغرب خـلال سيطرتـه على مقاليد امورنا أن يحولهـا الى ضروريـات ليس من الممكن الاستغنـاء عنها ، الّا بعـد عملية هـدم عميقة للبنية الخاضرة لمجتمعنا ، وتلك عمليـة لها مخـاطرهـا العظيمة .

ماذا نفعل اذن ؟

بسرعة قد لا تكون محمـودة ، والتوسـع ليس هذا مجاله ، اقول :

نبقي على هذه المنتجات على ان نبحث عن ملامح الغـرب فيها ، وعن امكـانية تجـريـدهـا من هـويتهـا وخصـائصهـا الغـربيـة ، وهـذه ليست مـاديـة في اي حـال ، بغيـة تـطويعهـا لـوضعنـا ، والانضـواء في منهجنا .

ولعل وسائل الاعلام من ابرز الأمثلة على هذه المنتجات .

اننا من خلال هذا التوجه نضع انفسنا فعليا على طريق الاجهاز الكامل على العملية الاستعمارية . وعندما يتم الاجهاز في مستوى المنهج نستطيع ان نعود الى الغرب منفتحين ، لنتعامل مع انتاجه بحرية مطلقة ودون وجل ، على اننا حينئذ لن نكون بحاجة الى ذلك ، لان الاجهاز خلال العملية ، يكون قد استنهض همتنا وابداعاتنا ليضعنا على طريق المنافسة او التفوق في مجال الانتاج .

ونحن في هذا الحيز من الارض قد حبانا الله ، لحكمة عنده ، بامكانات طبيعية ، غير الثروات المنهوبة ، هي امكانات الموقع الجغرافي والمناخي والبشري والروحي ، مما يبدو انه يؤهلنا مستقبلا ، وبعد ان يبلغ الغرب ذروة ازمته الصناعية والاجتماعية ، يؤهلنا لأن نتحول الى مورد يتلافى في العالم اخطار المجاعة والموت والسقوط ، ولسوف يعيدنا الى موقع الحاكم ، ولأن الاسلام بين ايدينا ،

فانه ضمانة لان نكون حكاما عادلين ، لا مستعمِرين . . وهذا ما يفسر ما قيل ويقال بعد نجاح الثورة الاسلامية في ايران متوافقنا مع تعمق الازمة في الغرب ، من ان الاسلام هو مصير هذه البشرية المتعبة الضائعة والمأزوقة . . وهذه الشهادة تأتي يوميا من الغرب ، كما تأتي من الشرق .

الاعلام مثالا . .

ان ابرز مثال للمنتجات التي ادخلها الغرب الى حياتنا ، واوصلها الى مستوى الضرورة الحياتية ، وجعل من الصعب علينا التفكير بالخلاص منها اثناء سعينا للخلاص منه ، لما قد يحدثه ذلك من فراغ وخلل . . ابرز مثال لذلك هو « وسائل الاعلام » ، ووسائط الاتصال الجماهيري المختلفة مقروءة ومسموعة ومرئية .

اني الآن امسك بورقة بيضاء قد تكون مصنعة في الغرب، وبقلم « باركر » مصنع في الغرب ايضاً . . واكتب مصراً على الامتناع عن قبول الغرب منهجيا جملة وتفصيلا . . اذن . . طبيعة هذه الورقة ، وهذا

القلم المنتجين غربيا ، ودورهما قد امكنني من جعلهما محايدين .

ان السلعة التي تنتج في سياق التطور العلمي في المجال الصناعي ، قد تكون احادية الجانب ، اي مادية صرفا مما يجعلها قابلة للحياة في كل الشروط . ويمكن التعاطي معها بلحاظ عموميتها الانسانية . اذ كل انتاج حضاري يتوفر فيه جانب انساني يكون هذا الجانب عاما والخصوصية تأتي من المنهج الذي يوظفه الانتاج ، ومن خلال قابلية هذا الانتاج للخضوع للمنهج ، ولذا . . قد تكون السلعة ثنائية الجانب بمعنى انها ذات عمومية انسانية من ناحية ، وذات خصوصية من ناحية اخرى . فالصحافة على سبيل المثال انتاج غربي انتج بمقتضى منهج محدد هدفه تربية افكار ومعايير وقيم المجتمع طبق احتياجات واهداف الفئة الحاكمة والقوى الاقتصادية والاجتماعية المتحكمة . . والتي قد تكون الحزب . . وهي الاقلية في كل الاحوال . . وقد دخلت الصحافة الى ديارنا على هذا الاساس ، اساس استبدال معايير الغرب بمعاييرنا لادخالنا في دورته الانتاجية من خلال تأهيلنا

للاستهلاك بعد اقتلاعنا او زحزحتنا عن ارضنا الثقافية وشخصيتنا الفكرية والعقيدية . . وتلك عملية تعرضت لها كل الشعوب المستعمَرة (بالفتح) . . والثابت تاريخياً انه كلما كانت الثقافة في اصولها وقيمها متقاربة بين الغازي والمغزو كانت الاخطار اشد واقوى ، وكلما كان هناك تمايز وتباعد وامتلاء ثقافي لدى الطرف المُغْزو قلّت الأخطار ، كما في حالتنا الاسلامية ، ونتذكر هنا ان الطباعة الحديثة دخلت مع حملة « نابليون » على المنطقة عام ١٧٩٩ ودخلت معها الصحافة . هذا في حين تؤكد المصادر التاريخية للفترة ان « نابليون » كان طامحاً لأكثر من العملية الاستعمارية التي نفذت فيما بعد ، وهو اول من وجه نداء إلى يهود اوروبا ليساعدوه في حملته والسعي لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ليكون هذا الوطن عاملاً مساعداً لانجاح مشروعه الثقافي والسياسي الاستعماري في المنطقة باكملها .

ومنذ القرن التاسع عشر الميلادي ، وعلى قاعدة حملة « نابليون » ، بدأت الصحافة تنتشر في ربوعنا وليس صدفة ان تكون الاسماء الاولى مسيحية ولبنانية في اغلبها . وان تتحول « الاديرة » الى حاضن لحركة

الطباعة الحديثة . (خليل مطران ، جورجي زيدان ، انطوان الجميل ، شبلي شميل ، ملحم كرم ، جبران حايك ، جبران تويني ، نجيب عازوري الخ) .

لقد اسس اليهود صحيفتهم الاولى في مصر (ابو نظارة) ليعقوب صنوع عام ١٨٧٧ على نفس الخط الذي رسمه « نابليون » في مصر ، وقبل فرض الحماية الانكليزية على مصر باحدى عشرة سنة وقبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول بعشرين عاماً ومنذ عام ١٨٧٧ الى عام ١٩٥٥ صدرت في مصر وحدها (٤١) صحيفة يهودية .

والسؤال : هل ان قضيتنا مع القلم « الباركر » والورق الابيض المصقول والمطبعة هي نفس القضية مع الصحافة والاذاعة والتلفزيون ؟

لنتفق على اننا متفقون على استمرار استخدام هذه الادوات ولكننا مدعوون الى اعادة النظر في منهجية استعمالها . وقبل ذلك الى البحث عما اذ كان هناك منهجية غربية في الاستعمال وان هناك منهجية

اسلامية مغايرة وبديلة . وان هذه المنهجية تاريخية ، ذات تاريخ ، او مستحدثة ؟

تبدأ المنهجية من وضع هذه الآلة في سياق الحاجة التاريخية التي انتجتها . لقد انتجها التطور الصناعي الذي كانت مقاليده وقدراته في قبضة طبقة من الناس بحثت عن التسويق والهيمنة ، وبعد تحقيق الفائض كان لا بد من التوسيع ونقل التجربة في المرحلة الامبريالية الى الشعوب الاخرى .. فانتقلت ، اذن هي وسيلة تطل منها فئة من الناس بحكم اهدافها ومصالحها على كتلة جماهيرية معينة لتأهيلها على طريق تحقيق الأهداف والمصالح من خلال منهج محدد واخلاقية مطابقة .. بالنسبة الينا ، الغاية من استخدام الوسيط الجماهيري مختلفة بحكم اختلاف القيم وعلى اساس الحكم الشرعي الذي يحدد علاقة الاعلامي والاعلام بالمستعلم . هذا يعني انه لا يجوز للوسيلة الاعلامية ان تكون منفصلة عن الكتلة الجماهيرية في تطلعاتها وغاياتها واخلاقيتها . انها جزء من حركة اجتماعية شعبية واسعة ، حركة الاكثرية في اتجاه الوحدة المبنية على الوضوح والصدق . تبدأ من

حركة المسجد وتمضي طولاً وعرضاً ، عمقاً وأفقاً محكومة بروحية المسجد .

واضح اني هنا لا اجيب على السؤال ، وانما اشير الى مبدأ الاجابة .

وعلى ايّ حال الالتفات الجدي والعملي الى واقع اعلامنا الاسلامي . . ليرى كم هو متميز عن الغرب ؟ بعد الاقرار بضرورة التميز ، بمقتضى الشرع ومصلحة الأمة والثورة . . وكيف يكون اعلامنا متمايزاً فعلا ليكون له مذاقه الخاص واثره الخاص وليسهم في تنظيف حواس امتنا وقلوبها وعقولها ولغتها اليومية مما علق بها من غبار الغرب والتغرب .

ذلك يعني اننا بحاجة الى دراسة للاعلام في المنظور الاسلامي منهجاً واسلوباً وغاية ولغة ، لنحاول بعد ذلك او على اساس الدراسة والمعطيات التي تكشفها ، ان نخضع ما هو متوفر من وسائل الاعلام والانشطة الاعلامية لدينا ، اخضاعا تاماً للمنهج الاسلامي ، الذي نكون قد تبيناه موصولاً

بجذوره النظرية والتاريخية في القرآن والسنة والسيرة .

على هذا الطريق ومن اجل المقايسة والمقارنة وحساب التمايزات لا بد لنا من الأرقام . اي لا بد لنا ان نتوفر على دراسات ميدانية لوسائل الاعلام وكل ما يتعلق بها وبدورها واساليبها وتأثيرها .

٣ - النص الديني والحقيقة

من اين يـأتي المسلم الى « الحقيقـة » ؟ امن النص ؟

يستطيع المسلم ان ينقل السؤال الى مكان اخر ، الى المسألة الاولى ، الى النص . ان لـدى المسلم ادلة علمية على ان النص موحى بـه ، والوحي يختزل الجواب لانه يعطي للحقيقة تعريفا ، حدا كامـلا ، فصلا ربانيا يجعل النص ملزما وكون النص وحيا يعني انـه حقيقي ومحق هـذا لا يعني ان النص ، بمفهومـه العـام ، غير الاصطلاحي ، العرفي الشـرعي ، يقع خارج دائرة الجدل .

هنـاك جـدل في الـدلالـة ، اذن هنـاك مفهـوم

متحرك للحقيقة وتكاملي ، تكامليته في حـركته . ويتم البحث عن مطابقة هـذا المفهوم للنص وهنـاك حركـة من الحقـائق واليها تفتـرض ضمنا نسبيـة الـوصـول ـ الأدراك ـ وامكانه في آن .

وهنـاك جدل في الصـدور ، فيما يعـود الى السنة (وما ينطق عن الهوى) ولكن هل نـطق بهذا ام لا ؟ بهذا ام بذاك ؟ هل هذا هو النص ؟

واذا مـا اسعف السنـد كـان لا بـد من قيـاس المـطابقة ، من تحقيق امكـان الصدور وعـدم الشـذوذ (حسب الاصـطلاح) اي امكان تـركب النص عـلى واقعـه التاريخي . . هنـا تكون الحقيقـة ذات تـاريـخ ولتسهم في ضبط حـركة التـاريخ لا بـد لها ان تـلائم التاريخ ويبدأ دورها في الضبط من الداخل .

فيما يعود الى الجدل حول الدلالة فالمسألـة مسألـة لغوية ، يتسع الجدل ويضيق طبقاً لمستوى اللغـة لدى الـذي يتعاطى مـع النص . . واذا كـانت اللغـة هي الاختـزال الحقيقي للمستوى الحضـاري . وهي الاداة التي تلامس الحقيقة من داخلها اولا تلامس . تقترب او تبتعـد ، فان انحـدارنـا اللغـوي هـو المسؤول عن

تعقيد اشكالية علاقتنا بالنص القرآني . لانه يباعد بيننا وبين الاداء المتوازن للشأن المعرفي .

هذا الانحدار جاء في الاصل من خارج الاسلام او من خارج المسلمين . . ليست المسألة مسألة لسان او قوم ، وانما هي مسألة ذهن او ذهنية تقوم على الايمان او لا تقوم ، ومن هنا فالشعوب غير العربية - الأقوام الاخرى - على اساس من ايمانها بالوحي قطعت في مستوى المنهج مع حضاراتها قطعا واعيا واندمجت بالاسلام ورأت تحققها فيه فاستفرغت وسعها ، اجتهدت ، وامسكت بناصية لغة القرآن وابدعت . وسيبويه وعبد القاهر الجرجاني - اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز - والراغب الاصفهاني ، ليسوا سوى مشاهير في حقلهم وعلامات على اتجاه وحالة اتسعت حتى اخلت بالتناسب في مقابلها العربي .

في الكامل للمبرد يعترض الأشعث بن قيس باسم بعض العرب على علي (ع) لتقديمه - الحمراء - اي الموالي على العرب . . بينما هو لم يقدمهم بل هم تقدموا واحتلوا الصفوف الاولى في الصلاة ، والوقف

لمن سبق ، ويقـول عـلي (ع) ليـرد عـلى الاشعث فيفرق بـين الـذين يهجـرون الى الله وبـين الـذين يتمرغون في نـومهم كالحمـير ، على حـد تعبير الامام (ع) .. وينتهي الى القـول ، راصـدا مؤشـرات تاريخية (ليضربنكم عليه عـودا كما ضـربتموهم عليه بدءا) .

ان للجاهلية التي هي في مفهـومها العـام كل ما هـو غير الاسـلام ، على تفـاوت مـا ، وللجاهلية في العصـور الاولى من تاريـخ الاسلام بمـا هي استتبـاع للجـاهلية السـابقة وانفتـاح بنيـوي عـلى الجـاهليات المعـاصـرة لهـا .. لهـذه الجـاهليـة دور في تـأسيس الانحدار ، وفي تحويله الى شأن مؤسسي ، من شؤون السلطة التي اتت من اصـل معـانـد واقتضت، فكـرا مجـانسا لهـا في الاتجاه وفي المستـوى حتى تبـرر نفسهـا فـاقتضت بـذلـك لغـة سـاقـطة عممتهـا او حـاولت تعميمها على الامة لتقطع مـا بينها وبـين النص لتقطع مـا بينهـا وبـين الحقيقـة من اصـرة ووشيجـة تستلزم احتجاجا وادانة وتغييـراً لملوكها .

ان عـودة الى تاريـخ السلطة الامـويـة والمستـوى الفكري واللغوي لملوكها وتمثلات هـذا المستوى عـلى

الارض وفي الناس ، من شأنها ان تخدش الخلاصة المتعارفة والمراوغة التي تصر على التأكيد بان الانحدار اللغوي كان سببه الوحيد الاخرون الذين اشاعوا اللحن .

وفيما يعود الى الجدل حول الصدور ـ صدور النص (السنة) .. المسألة سياسية ، فعلى السياسة تأسس هذا الجدل .. من البداية اقتضى الايمان سياسة مطابقة والا فقد مصداقيته وسياسة بمفهومها التوحيدي الذي يوحد بين الذات والاخر ، بين الذات والموضوع توحيدا غير قسري يحفظ الخصائص ويوظفها في سياق شمولي . ويوحد بين الراهن وسيرته واحتمالاته المستقبلية ، ويرسم مسارا لحركة المجتمع والتاريخ مسارا محددا بالمنهج يتسع للابداع والجدل والتمايز ، ويضبط ايقاعه بالاصل والغاية ، يجعل الاتباع اتساقا والابداع غنى واغناء ، يجعل الاتباع ثباتا في الحركة يهديها ، والابداع حركة في الثبات تلونه باللحظة والمقتضى والمرتجى ، وما كان صدفة ان الثابت حسب الدين هو الروح وان المتغير هو الجسد وان هذا التغير هو دليل الحدوث .. على انه في نهاية المطاف . في الميعاد ، يعود المتغير ليلتئم ،

ويلائم الثابت الروح ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي انشأها أول مرة﴾ . ﴿بلى قادرين على ان نسوي بنانه﴾ .

وما هي بصدفة انه حسب الاسلام تبقى الروح والجسد مستويين لحقيقة واحدة والتغاير بينهما اعتباري محض والتمايز وظيفي خالص تنويع على الوظيفة الواحدة .

واقتضى الكفر في تجليه التحريفي او الانحرافي (قاسطون ، مارقون ، وناكثون) حسب تعبير الامام علي (ع) اقتضى سياسته ، ولوضوح النص وسطوعه كان من العسير او المستحيل الغاء الناموس (الشريعة) وتعطيله فبدأ العمل على تمييعه .

تقاطعت جاهلية الاستتباع هنا مع جاهلية يهودية ونصرانية مهودة ، بذرت بذورها قبل افتتاح العصر الاموي وعندما افتتح اذنت بحصاد . هنا كعب الاحبار عنوان يشير الى معنون أوسع مدى واعمق اثرا .

وكان هناك نص اخر ـ موضوع ـ وكان يهدف الى

تأسيس الالتباس وابعاد الحقيقة عن مظانها ـ والسنة عندنا ظنية السند ـ ابعاد الى مدى الشك بالاكثار من النصوص المتعارضة وخلخلة قواعد الجرح والتعديل حسب السياسة التي نشأت اولا ثم انشأت الفكر الذي يبررها .

ولاولوية الحقيقة والحق في المعتقد (لا يقاس الحق بالرجال وانما يقاس الرجال بالحق . اعرف الحق تعرف اهله واعرف الباطل تعرف اهله) (والحق اولى ان يتبع) . كان لا بد من تأسيس علوم لاستدامة المتابعة وظلت غاية الوصول اصلا واعطى علم الحديث (الرواية والدراية) والرجال اشارة عريضة للتوغل في تفاصيل التاريخ اكسبت بالتالي عناية وحذقا في استخراج الكلي من جزئياته واورثت دربة في استكناه الكيان في مجمل بنياته ، وكل ذلك اقتضى ايضا لغة تفصيلية نقدية تصل في نقديتها احيانا كثيرة الى تفتيت النص وفحص مفرداته وروابطه ومستوياته التعبيرية وصوره الفنية ودلالاته حتى كان المدخل الى علم الاصول والشرط للوصول الى هذه الاصول ـ اصول الفقه ـ ما دعاه الاصوليون بمباحث الالفاظ .

هـذا هـو النص الـذي يـأتي منـه المسلم الى الحقيقة ، نص ممحص حتى الضنا ، ومـا ذنب المسلم اذا ما كان يقف مليا عند الوحدة ؟ فهـو يأتي من نص تـوحيدي يصـل الى معادلـه المـوضـوعي - الـوحـدة - معادل التوحيد المطلق فيرى امة واحدة ويرى مصيرا ومسارا وتاريخا واحداً ويرى في التوحيد الزاما بالـوحدة ووعدا بها وضمانا لها . . ويرى ذلـك حقيقة وحقـا ؟ ويرى العدل تمام التوحيد وشرط الوحدة وناتجها ، بـه يتم التـوحيد والا كـان مجروحـا ومعـطلا وحشـوا . . ويرى النبوة تتأسس على العدل ويأتي نصها نصا عادلا ملزما لمن يلتزم العدل .

وبـالتـالي ﴿انـا نحن نـزلنـا الـذكـر وانـا لـه لحافظون﴾ ، ﴿لا يأتيه الباطل من بـين يديـه ولا من خلفـه﴾ تماسـك داخلي واستعصـاء عـلى الخـارج . . وحفـظه هو منـع تحريفـه زيـادة او نقصـانـا تـلاوة او حكما . ومنع المطابقة بينه وبين الحقيقة تحريف وههنـا الـزام بالسعي الى هـذه المطابقـة . ومن هنا تـأتي لغة الفقهاء (هذا رأيي وهو صحيح بنظري ويحتمل الخطأ وهـذا رأي الاخـر وهـو خـاطىء بنـظري ويحتمـل الصـواب والله اعلم) . . ومن هنا للمصيب اجـران

وللمخطىء اجر واحد ، من المجتهدين ، والاجتهاد هو استفراغ الجهد او بذل الوسع في تحصيل الظن بالحكم ، وهذه هي لغة الاسلام الدين الصريحة في اعطائها للحركة مداها الشرعي .

بعض الذين يرون اشكالا اصليا في النص الديني ولا يرونه قناة الى الحقيقة ، بل يرونه منافيا معاندا وملغيا ولاغيا بالتالي ، ويرون الحقيقة خارجة ، لا يرونها الا خارجة ، ويرون مطاولته لها اعتداء عليها ، هؤلاء تفلت من قسمات لغتهم نوايا ورغبات في اتباع الغرب في حركته الذهنية والعقلية من الحقائق واليها .

منهجيا ، يحق لنا ان نقرأ النص الماركسي الاصلي قراءة غربية اي بلحاظ انه نص غربي تأسس على مادية فيورباخ وجدلية هيغل واتى من ارهاص غربي بالبديل الكلي لكل ما هو ديني وفي طموحه الاجتماعي كان مشروعا غربيا لمعالجة تغييرية جذرية ! لا شكاليات السياق الحضاري الغربي وانه بالتالي نص ومقفل ولا يحتمل اكثر من دلالة ومدلول ومن هنا جاءت اشكاليته واستحالته . وتعبير

الماركسية اللينينية لا يعني ان هناك اضافة توضيحية الى النص الماركسي بل هي اعادة انتاج لهذا النص لم تتمثله وحسب بل محته في الأعم الأغلب وهي تشير اليه وتتكىء عليه كمنشأ غابر . . وفي المتداول والمعمول والملموس ليس لدينا سوى النص اللينيني الذي يتسع في صيغته اللفظية لتفاوتات تصل الى حد التناقض الكامل . هذه التفاوتات يقرأها بعض الماركسيين على انها تحريف فكري جاء ليطابق انحرافا سلوكيا (سياسيا) . . وبعضهم يمد عليها العمومية الماركسية قسرا فيصفها بالوحدة والتناقض .

ان ذلك رشح ويرشح الماركسية لفقدان مصداقيتها ، ومن هنا فهي تبرر غيرها بل تدمج هذا الغير - النقيض - بها لتبرره ، فتمسي مفتوحة على كل الاحتمالات وتفقد المعيارية وتبرر الانفصال والانكفاء والنكوص .

وهنا نكتفي بالاشارة الى الصراع الصيني السوفياتي وبولونيا ويوغوسلافيا والبانيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكية وهنغاريا . . ومن هنا احتمال ان يتجدد ما حدث في هذه الدول ويمتد الى بلغاريا وحتى

ليتوانيا واوستونيا بعدما وصل الى اليمن الديموقراطي . . ان الواحد منا يحتاج الى قدر كبير من النفاق والذعر والمجاملة والقسوة والمداراة لكي يبتلع سؤالا عن افغانستان . .

ولا أدري ما اذا كان الذي يصادر مثل هذا السؤال مقتنعا فعلا بان هناك معيارا نظيفا للحق والحقيقة ؟

الى هنا والسؤال : اين يفترق النص الماركسي عن النص الليبرالي أو الرأسمالي او الامبريالي ؟ قد نجد افتراقا وتغايرا في الدرجة فيما يخص لغة وعلاقة النص الماركسي بمسألة غربية محض تغاير مع النص الغربي غير الماركسي . اما خارج محيط الدائرة فاننا لا نجد أكثر من تغاير نسبي بين مفردات ذات اصل اشتقاقي واحد . . والفوارق في هذه الحال لا تغطي ولا تتسع للتطابق الذي هو الغالب بل الاغلب لانه الاصل .

(النصوص الماركسية والغربية عموما حول الشرق وشعوب الشرق وتاريخية الشرق اولا تاريخيته وضرورة تغريب هذا الشرق ، لا ادخاله في الغرب ،

بل تشتيته وتفتيته بيد الغرب لا لحاقه بالغرب ...
النصوص الماركسية السياسية حول فلسطين وحول اليهود والصهيونية في تجليها السياسي في الامم المتحدة عام ١٩٤٧ على لسان غروميكو .. مثالا لا حصرا) .

اين الحقيقة اذن ؟ هل الحقيقة هي التحرر من النص ؟ او الاتكاء والاحتكام الى نص مصداقيته لا ترقى الى مستوى الشك والمشكوك .. بل تبقى احتمالا يتضاءل حتى يتلاشى ؟

وفي الغرب الاخر ، غير الماركسي .. هناك وهم او توهم بالتحرر من النص ، او عدم الصدور عن نص ، او الصدور عن لا نص .. يبتنى عليه امتداح طفولي ودوني لمعرفية الغرب منشأ واتجاها وحصيلة وجدارة .

نحن لا ننكر على الغرب اتقانا ما لمفردات ما في الفكر .. ولا ننكر عليه اتقانا بالغا لمفردات تقنية وانما نسأل عن السياق وعن الوظيفة .. وعن الخداع الذي اوهم بان الامبريالية تتجه عدوانا واغتصابا واستلابا نحو الاخر فقط .. على ان ذلك مبرر !!!

ومن اين اتت هذه الامبريالية ؟ ما هي الحقيقة التي هي مصدرها وغايتها وطريقها ودليلها ؟

ما هو السياق الحضاري والوظيفة العملية التاريخية للمفردة المتقنة ؟ اننا نسال عن الاهلية الحضارية للمنهج - الامثولة - وعن الناتج الفعلي في الداخل والخارج . نسأل عن حركة الحقيقة باتجاه الذات وعن حركة الذات باتجاه الحقيقة .. عن مسار هذه الحركة وعلاماته ودلالاته ومؤشراته .

والانصاف يقتضينا ضميرا نظيفا . لا يكتفي بصالة العرض بل يتجول في ارجاء المعمل يرى الالة والمألين ، ويوغل نزهة وحقيقة في هارلم وكل مفاصل البؤس وفقدان الحافز والطعم واللون والرائحة .

الانصاف يقتضي ان نتفحص حقائق مائلة ونقيس عليها حقائق مفترضة مماثلة ونكتشف وحدة الاصل فلا نرى حركة باتجاه الحقيقة بل نرى الباطل هو الاستقطاب الوحيد .. ولا ادري ما اذا كانت الحقيقة غير الحق .. غير حق الشعب الفلسطيني ؟.. عندئذ تمسي اسرائيل حقيقة فتمسي من بعد حقا .. ونيكاراغوا مثال اخر ..

قد يكون مدرك الحكم بان في الغرب حركة دائبة وراء الحقيقة وحولها هو عدم الصدور عن نص . بلى . . قد لا نجد صدورا صريحا عن نص صريح . . ولكن هذا لا ينفي النص والنصوصية . هناك نص والفارق هو ان النص الغربي الامبريالي الجائر يأتي من الفعل ، من الحدث ، الحدث يولد وكأنه انبثاق ، حالة ، فجاءة ، بينما هو يأتي من سياق ذهني وتاريخ عريق وثابت الى حد كبير ، يبدو حرا ولكنه غير محرر . والحدث اتباعي محض وبعدما يستوي على سوقه يأتي النص ليكون امتداداً له ومكملا ، اطارا نظريا لواقع قد وقع .

ويحاول الغرب الزامنا بنصه مستدلا على صحته باتساق الحدث . ونأخذ النص باعتباره غطاء لحقيقة قائمة ، قد تكون حقا وقد تكون باطلا وهي في كل حال مدخل ذهني الى وعينا تحرفه وتدفعه باتجاه تبرير الباطل الصريح الذي يكون عدوانا علينا حينا وحينا على الانسان في الغرب ، عدوانا في كل حال . .

ايكون الابداع في الاتباع ؟ عندما يكون الاتباع اتباعا للاخر ؟

ما ذنبي اذا ما قرأت واقعا ووقعت على حقائق

سائغة ومن ثم ارتقيت الى نص فرأيته يختزن هذه الحقائق ؟

ما ذنبي اذا ما رأيت راغب حرب يخرج من نص الى نص من كربلاء الى القدس من القرآن الى الدم . وتذهب كل نصوصنا اليه ، تطاوله ولا تصل ؟

ما ذنبي اذا ما رأيت محمد سعد يطلع من علاقة فطرية بالنص ليصبح نصا ساطعا ؟ وما ذنبي اذا ما رأيت كل الذين شككوا في جدوى النص الديني او لم يحتملوا الحقيقة الا خارجه وقد خرجوا من نصوصهم وحقائقهم عندما دخلت اسرائيل وقدموا انفسهم تطبيقا لذل الامم امام اليهود حسب النص اليهودي الذي خرج عن كونه نصا دينيا فصار عدوانيا وجانب الحقيقة وكمن في مفاصل النص الغربي ؟

عندما يصادر القرآن في تركيا والبانيا معا وفي نفس الوقت ويعاقب عليه اعود لأرى في النص نصي حقيقية تجعله الوحيد المتسع لاشواق الحرية والابداع والاحتمال الوحيد لمعرفة بناءة محررة .

وما ذنبي بعد هذا كله اذا ما قررت العودة الى النص ووجدت النص يوصد ابوابه دوني الا ان اكون

مترعا باللغة بالغا بها اوج شفافيتها والقي ؟

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾[1]

شباط ١٩٨٦

(١) سورة القيامة ، آية ١٦ ـ ١٩ .

٤ ـ مقاربة أولية للشأن الفلسفي

عندما تستقيل الأمة من وظيفتها الحضارية . فليس من الضروري ان تتوقف لديها عملية البناء . قد يستمر البناء على بعض الاصعدة ، (الفكرية منها خاصة) . واذا ما حصلت عملية استبدال منهجي ، فليس من الضروري كذلك ان تطال جميع الحقول والمفردات .

لقد حصل ان استقلنا واستبدلنا بمنهجنا الرباني ، منهجاً مادياً غريباً ، تصب انهاره وسواقيه في غير بحرنا ، وعارضه لا يمطرنا . انتقلنا من حركة العمل والفكر بالالتزام الى الاستجابة لاحتياجات الآخرين ، وطبق معاييرهم . غير ان ذلك لم يمنع من استمرار حركتنا الفكرية في مجالات معينة . بعيداً عن

تأثيرات الاستقالة والاستتباع والاستبدال .

لقد استمر نشاطنا وعطاؤنا الفقهي ، وحفظ الكثير من خصائصنا ، ومميزاتنا على سبيل المثال . . . ولكن ذلك في الاغلب عائد الى خصوصية هذا الحقل المعرفي ، خصوصيته هو انه يتماس مع ابعاد ، وملامح ثابتة في بنية الامة ، وشخصيتها ، وتكوينها ، وفعلها اليومي . ومن هنا يأتي تطلبها للحكم الشرعي باستمرار ، تسبقه بحكم التطور الى منطقة مستحدثة ، ثم لا تلبث ان تستدعيه حتى تتكيف به مع المستجد .

ولا يلبث ان يشد رحاله لا ليغطي الواقع بل ينفتح على احتمالاته المستقبلية .

الى ذلك فان التشريعات الوضعية لم تستطع ، ولم يكن بامكانها ، لغربتها واحاديتها ، ان تقدم بديلاً شاملاً قصرت عن تغطية مناطق واسعة من احتياجات الامة ومتطلباتها . مع ملاحظة ان هذه التشريعات حتى في مجالات اهتمامها ، كانت وما تزال لدى القطاع الاوسع من المسلمين ، موضع نفور لطابعها القسري . وما زالت الامة تبدي ازاءها ممانعة تشتد

وتلين ، وتؤكد ان الامة كانت وما تزال تنتظر نهوض الاسلام ليمسك بالزمام ، ويطرح تشريعاته للتعامل مع كل الوقائع والموضوعات .

لقد اتيح للتشريعات الوضعية ، ولفترة طويلة ، ان تغطي نفسها بغطاء نظري ملفق ومحكم شكلاً ولكن التجربة ما عتمت أن أعادت البناء النظري التلفيقي الى عناصره الأولى وكشفت وهنه .

ومن ناحية الفقهاء كان الفقه بالاضافة الى انه المجال الحيوي للتعاطي اليومي مع المسلمين . . . كان القناة التي يتم من خلالها التواصل مع زمن النبوة ، والنص بشكل عام . وضمان عدم القطيعة والشعور بالذات والتمايز عن الغير .

ان هذه الخلاصة لا تنطبق ، أو لا تنطبق بحذافيرها على مجمل الانشطة والحقول الفكرية الاخرى .

لقد كانت الاستقالة شبه تامة في مجالات معينة مثل الآداب والفنون التي تحولت الى تكرار واستعادة . . . والعلوم الانسانية والعلوم البحتة بشكل عام .

لقد كانت هذه الحقول مناطق فراغ في نشاطنا ، وان لم تكن منطقة فراغ في تراثنا وتاريخنا ، ولعل ما أنتجه الآخرون في هذه الحقول قد بني على ما أسسناه ، وان غايره منهجاً وغايةً .

لقد تعطلت ذاكرتنا الى حدٍ كبير وانسحب عطاؤنا الى الرفوف .

في المجال الفلسفي لم تكن الاستقالة تامة .

لقد استمر النشاط الفلسفي درساً وانتاجاً ، ولكن بعيداً ـ في بعض اشكاله ـ عن غائيته الاسلامية . . . وهذا ليس كلاماً على النوايا ، وانما هو كلام على المنهج .

اذا كنا شموليين . . . ولا بد ان نكون كذلك . بمقتضى الاسلام . وفي الاسلام (الى الله المنتهى) فمعنى ذلك ان مستويات نشاطنا الفكرية لا بد أن تتواصل وتتكافأ . . . ليكون الصرح متكاملاً ومتماسكاً . . . هكذا كان الى حد ان التخصص او الاختصاص لم يكن له مدلول في ثقافتنا دون أن يؤثر التنوع على التعمق والعمق . فالثقافة الاسلامية كانت

تـذهب أفقاً وعمقـاً بنفس القـوة والجـدارة . . . حتى العلوم البحتة تعاطاها أئمتنا وتلاميذهم لا ترفـاً ، بل توخياً لما فيها من نفع واستفادة منها في تثبيت العقيدة ، وترسيخها وسد منافذ المآتي عليها . اذن كانت هنـاك غائية معينة تستقطب فعالياتنا الفكريـة وتنميها ، هي العقيدة .

ومن هنا بالذات كان صعباً بل مستحيـلاً . . . الا في حـال الخـروج من الاسـلام أو الوقوف عـلى غـير ارضـه . . . أن يكون لنـا فلاسفـة يتناقضـون رؤ يـة وطـرحـاً حــدان يلغـي الـواحــد منهم خصمـه جملة وتفصيلاً . . . دون ان يعني ذلك نفي التعـارض وهو قـائم بحيث لا يجـدي نفيــه . . . ولكن قصــارى التعــارض ان يتمـايــز المتخـاصمــون في مـداخلهم ومساراتهم الى المعرفة بالاسلام .

يصدرون عن منهج واحد ، ويختلفون في مفـردات هـذا المنهـج ، وفي العـلاقـات الـداخليـة بــين هـذه المفردات واولوياتها .

لقد كانت التناقضات الحادة بين مفكرينا في الحقل

الفلسفي تتم في منطقة اخرى . وفي ارض اخرى ... هي ارض الاغريق ، ومنطقة الخلط العبري والسرياني من هذه الارض تحديداً .

حتى الخلاف بين ابن رشد والغزالي هو في الاساس خلاف في اتجاه الاسلام ، وعلى ارضه ، ولكن رياحاً هبت عليه من المنطقة الاخرى فألهبته .

لقد انتهى عهد الاستقالة . واخذنا من جديد نستشعر دورنا الحضاري ، ونستعد لتحقيق عالمية الاسلام الثانية .

ويأتي ذلك متزامناً مع ازمة الآخرين وبلوغها مداها . ونحن الآن نتصدى للوظيفة فعلاً ... اذ ان المستوى السياسي هو شرط التصدي الفعلي وقد حققناه في ايران ، وما يزال تحقيقه ، التحضير لتحقيقه في الاقل جارياً في بلاد اخرى ... وفي مجراه الموصل ...

ان ذلك يضعنا امام مهمة جديدة قديمة . هي اعادة اللحمة فيما بين مستويات نشاطنا الفكري المتنوع ... أي إعادتها إلى الانتظام جميعاً في حركة

واحدة واتجاه واحد . حول محورها العقيدي .

وترجمة ذلك ان ننهمك بملء مناطق الفراغ من جهة ، وان نعيد ادماج المستويات التي انفصلت أو تباعدت الى سياقها العام من جهة ثانية .

في المجال الفلسفي نحن مطالبون بانجاز حالة من الوعي الفلسفي ، تضارع حالة الوعي الفقهي ، أفقاً وعمقاً . . . قبل ذلك وتسهيلاً لهذه المهمة ، لا بد من تسجيل نقلة نوعية في حركة الفكر الفلسفي الاسلامي . . . لا بد من درجة ما من « الذرائعية » محكومة بوعي اسلامي ، ومصداقية اسلامية اخلاقية .

الذرائعية لازمة لحل الشرنقة التي تكونت حول فكرنا الفلسفي وللخروج به عن دائرة الاستهلاك المحدود ، وتوظيفه في تكوين الوعي الشمولي العام .

ان ذلك يقتضي ـ كمقدمة ـ تخليص او اعفاء النشاط الفلسفي من الاهتمامات التي تأكل الوقت والذهن والجهد ، ولا تنتج الاّ ترفاً تقتصر مباهجه على المتخصصين ولا تتعداهم الى المثقفين غير

المتخصصين ، وان كانت ثقافتهم من العمق ، والشمول بحيث تؤهلهم للولوج في عالم المطالب الفلسفية التخصصية لو كانت هذه المطالب مفتوحة بعض الشيء .

لا بد من مد الاهتمام الفلسفي بحيث يتماس بل يتداخل مع المستويات المعرفية الاخرى . خاصة في حقل العلوم الاسلامية ـ المجتمع والتاريخ ـ آخذاً بالاعتبار ان الاسلام مشروع حضاري وثقافي شامل تتكافأ بناه الفكرية والتشريعية في صياغة ملامح مجتمع منشود ، والتحكم بمسار الحركة التاريخية نحو بنائه . مما يستدعي إشاعة الوعي بادواته المعرفية . . . ودون ذلك دون ان يتماس الاطار النظري مع مقتضيات السعي والحركة ، لترشيدها يمتنع تعميم الوعي الفلسفي وتفقد الفلسفة حركيتها ، وفاعليتها . وتصبح مناخاً مساعداً على الانسحاب والهروب من المهمة الحضارية إلى نشدان الخلاص الفردي المستحيل بحسب الاسلام والذي هو بالتالي هدف اريد له انه يكون غاية المعرفة والسلوك المسيحيين تحت تأثير الذرائعية الغربية مما جعله

ينعكس على المسيحية وهناً واستخذاءاً وفقداناً للاصالة والطموح .

واذا كان لا بد من ارضية فكرية الهية تتم عليها هذه الحركة ، او النقلة في مجال اعادة ادماج النشاط الفلسفي بمستويات الفكر الاخرى اقتراباً بها من الحياة ، والحركة والفعل - فعل الامة لا الافراد ولا المجموعات - فلا بد أن تكون الارضية تلك حافلة بثوابت الفكر والقيم ونوابض الحياة . . . ذلك هو القرآن الكريم الذي لا بد ان نستعيده او يستعيدنا نصدر عنه وننتهي اليه .

هذه ليست دعوة الى وضع القرآن - تعسفاً - في مواجهة حركة الفعل . . . وهو لا يضع نفسه في هذه المواجهة . . . بل يحتضن الفعل ويؤمن له مناخ الهدى والانبثاق في حركته ولكنها دعوة الى جعل اهتماماته خارطة لاهتماماتنا . وتضاريسه تضاريس همومنا الفكرية . على أن تكون روح القرآن هي عمارة وجداننا . . . واذا ما كانت الفلسفة تستفرغ جهداً محموداً في البحث عن وجود الخالق ، فان مائز

القرآن الذي لا يغفل هذا البحث حتى في ملامحه الفلسفية ، هو انه يضعه في اطاره الشمولي الهادف المجدي ، ومن هنا يتفارق القرآن منهجياً مع المنهج الفلسفي البحت . . . هذا التفارق المبرر بالنسبة الى مناهج الآخرين ، والذي لا يمكن ان يكون مبرراً بالنسبة الينا لان القرآن هويتنا ولغتنا ومنهجنا .

نحن الآن في زمن آخر . . . هو أيضاً زمن اسلامي آخر . . . هو امتداد للزمن الاول ، امتداد له لانه مسكون بنفس الهم ، والهاجس . . . وهو يلغي الفواصل المثقلة بالفراغ والعطل والاستقالة .

ان ميزة الزمن الاول . . . هذه الميزة التي نستعيدها الآن هي بالاضافة الى الصفاء الذي يماثل الفطرة والذي يتطابق مع روح القرآن وجريانه . . . الشمول والتكافؤ بين اصعدة الحركة والفعل كافة والفكرية منها بصورة خاصة .

اننا على مر تاريخنا لم ننجز تقدماً ما في مستوى من مستويات حياتنا الا من ضمن حالة من النهوض العام على كل المستويات ، ولم نسجل تراجعاً ما ، في

مستوى ما ، الا وكان هذا التراجع مؤشراً ونتيجة لتراجع عام .

الآن نحن في مرحلة التصدي لمهمتنا الحضارية التليدة العتيدة ، وبجماع قبضتنا نطرق باب المستقبل ، ونخطر « بزازي » العصر ، ومكاسيه بتوظيب بضائعهم ، ولم دفاترهم . ونعلن عصرنا . . . نعيد الامور الى سياقها لنكشف وحدة هذا السياق على مستوى الكون والانسان معاً . . . فوحدة الخالق تتجلى في وحدة المخلوق. والتوازن بين ملامحه في تناغم عادل ، لا يجور فيه بعد على بعد . ونمد حالة العدل هذه الى طموحنا في حركة المجتمع والتاريخ لتشكل أرضية للحركة الثورية الدائمة التي ترد الطغيان الى التوازن ، والشتات الى الاتساق . . . فالسياسة عبادة والعبادة سياسة والدولة دين والدين دولة والدنيا آخرة والآخرة دنيا .

ان الاعادة إلى السياق والشمول والتكافؤ لا بد أن تنتظم جميع فعالياتنا لتتماثل مع صورتها في الزمن الاول .

ونخرج من زمن التعدد والانفصال . لنخرج من ثنائية الحداثة التي أتتنا من الاغريق بوجهها الاستعماري الحديث .

اننا عندما نجتمع في الحج لا نجمع ألواناً وعناصر متنافرة . وعندما نلبي كما عندما نصلي لا يكون ايقاع الصوت متعدداً يذهب كل ايقاع منه في اتجاه ويأتي من اتجاه . وانما تتوحد الاصوات كلها في ايقاع متعدد . بلحاظ متوحد في الاساس والخلفية خلفية التوحيد .

وعندما نفكر ، لا نفكر ترفاً . ولا استجابة لحاجات آنية محدودة بل نفكر ترشيداً للحركة والفعل فعل الفرد والامة وحركتهما في كل ذلك . . . في فكرنا الارشادي نكون مسترشدين باصولنا :

ولا نفصل او نباعد بين البُنىٰ . . . اذ في الحقيقة ليس هناك بنى ، وانما هو بناء واحد . اساسه العقيدة ولا تسكنه او تسكن اليه الا اذا تكامل . ولا يتكامل الا اذا ابتدأ من العقيدة وانتهى اليها .

من هنا يقوم الجدار بالجدار والاّ اصبح عرضة للسقوط والارضية لا تقوم الا بالسقف والا أصبحت عراء لاتقي حراً ولا برداً والسقف لا يقوم الا بالارضية والا كان عبثاً ولغواً ولا يقوم الجدار الا بالسقف لأن السقفية غاية الجدار والسقف لا يقوم الا بالجدار لانه ركيزته . . . وهكذا الابواب والمنافذ وغيرها .

الفقه والاصول والكلام والفلسفة والتاريخ والآداب والفنون . . .

ندعو الى التماسك بين مستويات فكرنا جميعاً . والتماسك لا يمكن انجازه الا على قاعدة الاستقلال .

والاستقلال الفكري . ليس ارادة تولد في لحظة مفاجئة ، ونتيجة يقظة مفاجئة ايضاً . . . انه مسألة تاريخ . . . ان رأي « نولدكة » وامثاله من القاطعين ، بان المسلمين في فكرهم الفلسفي لم يزيدوا على نقل الفكر الاغريقي واعادة انتاجه ، هذا الرأي وان كان سوء النية واضحاً فيه فانه لا بد ان يناقش بموضوعية تحول بيننا وبين الاطمئنان والوقوع

في الاغـراء الذي يـظهر من آراء ايجـابية اخـرى مثـل رأي ولهلم ديتـاي او غوستـاف لوبـون . . . ونحن في الاساس معنيون بالمسألـة بعيداً عن شهـادات السلب والايجاب . . .

ومن هنا لا بد من العودة ـ على طريق الاستقلال ـ الى السيـرة حيث نتجـاوز مـرحلة الاختـلاط والنقـل لنصـل الى زمن النص ونكشف من جـديـد خـارطـة حركة العقل الاسلامي في العصر الأول ومساراته . لسنا مسكونـين بهاجس الانفصـال بل نحن نشعـر ونعيش الاتصـال بحـركـة الانبيـاء منـذ لحـظة الخلق الاولى .

واذا مـا تلمست الماركسيـة ، جـذور الجـدل عنـد الأيـونيين « هـرقليط » . واذا ما تلمست الـوجـوديـة جـذورهـا القـريبـة عنـد دوستويفسكي . . . فلسنـا مضـطرين لتلمس جذور فكـرنا عنـد انبـاذ دقليس ، لجعل خارطة افلاطـون ، او ارسطو ، او افلوطـين ، خارطة فكرنا سواء قبلنا خط السير عليها أم رفضناه . جذورنا هناك . والدين عند الله الاسلام منـذ آدم الى يومنا .

ان مستويات الفكر متآصرة متواصلة . ومن هنا كان تعسفاً ان يحاول البعض الفصل بين المادية الجدلية ، والمادية التاريخية باعتبار الاولى ايديولوجيا منحازة ، والثانية علماً موضوعياً محايداً يمكن اتخاذه منهجاً في تفسير التاريخ دون ان ينافي الاسلام . في حين ان الماركسيين يصرخون منذ ماركس حتى الآن بأن المادية التاريخية ، هي التطبيق العملي للمادية الجدلية على حركة المجتمع والتاريخ . . . كل التاريخ ! فالمادية الجدلية في خدمة المادية التاريخية . هناك اذن استهداف معين صرح به ماركس عندما أكد بأن جميع الفلسفات السابقة على الماركسية كانت تفسيرية ، وان الماركسية هي فلسفة التغيير . . . المؤرخون لجذور الفكر الماركسي ينسبون الجدل الماركسي الى الجدل الهيجلي . ولكنه بالتلفيق بينه وبين مادية « فيورباخ » أصبح جدلاً مادياً ، يختلف عن الجدل الهيجلي ، بأن هذا الآخر تنحصر حركته في الفكر ، بينما الجدل المادي الماركسي يتعدى الفكر الى الواقع والتاريخ . . .

وباستهداف التغيير والانتقال الى الواقع ،

والتاريخ ، تصبح حركة الواقع ، والتاريخ هي الحاكمة على المادية الجدلية . وعندما نختار المادية التاريخية نكون ضمناً ، وقهراً قد اخترنا المادية الجدلية ، أي أرضيتها الايديولوجية .

كل فلسفة في النهاية ذات هدف يبعدها عن العبث . . . من شأنه ذلك ، وقد لا يمنع منه او يحول دونه . . . حتى مدارس العبث في الفكر الحديث هادفة . أليست رداً على حالة في الفكر والسلوك ، تأسست على احداث تبدو في ظاهرها غير معقولة . . الحروب ، وحركة الاستعمار ، وابادة الشعوب ، والقلق الذي انتجته .

اذن هي هادفة ، ومن هنا تندمج عناصرها ومفرداتها في سياق واحد محكوم بدرجة ما من الوعي . وتكتسب هذه العناصر والمفردات خصائص جديدة ، فتأتي من حالة الاندماج مصطحبة خصوصياتها على طريق الاندماج .

ان الدعوة الى دمج فعالياتنا الفكرية يهدف حسب منطق العقيدة وتحت حراسته الى اضفاء خصوصيات التكامل على كل العناصر ، دون أن يسلبها

خصوصياتها الذاتية المقومة ، وهو خيار إسلامي لا محيص عنه في النهاية ، نريد تعميماً للفكر الفلسفي ، ولكن هناك مشكلة تعترض سبيلنا إليه . . . وتأتي هذه المشكلة تلخيصاً في النهاية لكل الاشكالات التي ترد على مساهماتنا .

تلك هي مشكلة الايصال . . . اننا نتحدث عن مجال معرفي وسيلته اللغة . . . وقد امعنا كثيراً في صقل هذه اللغة حتى اصبحت مغلقة ، ومستعصية . بينما تمكن خصومنا من فتح لغتهم حتى وصلوا الينا . طوعوا لغتهم ، وما قيل لهم : قفوا . . . خرجتم عن اختصاصكم . . . لم يكن هناك مأخذ على سارتر بانه اديب وليس مفكراً فلسفياً ـ مع نقاش لنا في هذه المسألة ومن وجهة نظر خاصة ـ لم يُقل له ذلك لانه كتب « الذباب » « والدوامة » بل ان مسرحيتي الذباب والدوامة على سبيل المثال خدمتا اهداف سارتر اكثر من كتابه « الوجود والعدم » وكذلك « طاعون » كامو و « غريبه » وهناك من يؤرخ للوجودية بادئاً من « دستويفسكي » ! .

هنا نعترف ، ولا بد ان نعترف بالخطوات

الكبيرة ، التي قطعتها جهود الشهيدين الصدر ومطهري على طريق اللغة ، وفي اتجاه التعميم .

٥ ـ الحدث الإسلامي وضرورة التمايز الأدبي

لماذا لم يصدر حتى الآن عمل أدبي (روائي أو مسرحي أو حتى وصفي) شامل يتخذ من معتقل أنصار موضوعاً له ؟

مع أن المعتقل ـ كحدث ـ يكاد يكون من أغنى الموضوعات ، خاصة وأنه امتداد مكثف لموضوع المقاومة الإسلامية في لبنان . ذلك الحدث النوعي في تاريخ الصراع مع الإستعمار والصهيونية .

بصرف النظر عن قناعتنا بعدم صلاحية الأشكال الأدبية التقليدية لاستيعاب موضوع كهذا ، فقد يكون الجواب بأن العمل الأدبي الجيد لا بد أن يتأخر زمنياً عن وقت الحدث ، لأن الواقع أسرع وتيرةً من

صورته في الذهن والوجدان والفعالية التعبيرية التي تتوخى تغطيته . ولكننا نستطيع أن نصادر على هذا الجواب بالقول : إن الحدث الفرع أو الإمتداد (معتقل أنصار) والحدث الأصل (الإحتلال والمقاومة) يتمتعان بدرجة من الوضوح والعمومية والسطوع بحيث لا يحتاجان إلى عملية اختزان طويلة الأمد . . . ثم إن المقاومة ـ الأصل ـ نهضت على قاعدة الإحتلال والعدوان ورداً عليها . . والإحتلال والعدوان ليسا حدثاً طارئاً ، وهما جاهزان للتعبير .

في تقديري أن هناك مفارقة لا بد من وضع اليد عليها وتعيينها في الأعمال الأدبية التي تناولت، موضوعات مماثلة شكلاً ، من تاريخ المقاومة الوطنية في البلاد التي تعرضت لعمليات عدوان وقمع من قبل الإستكبار العالمي أو وكلائه المحليين . حيث نلاحظ أن هناك شخصيات محورية يتناولها الغمل الأدبي ويرصد نموها وحركتها لأنها تمثل تكثيفاً للحالة العامة ومؤشراً عليها . ولكن التمييز النسبي بينها وبين هذه الحالة العامة ، مضافاً إليه ما يُسْقَط عليها من قبل الأديب الفنان من تميز ذي مصدر ذهني أيديولوجي ، يصل بها ـ أي التمييز ـ إلى حد جعلها استثناءً مقطوعاً

عن الحالة العامة .

ونـادراً مـا نعـثر عـلى محاور تتجاوز الفـرد أو المجموعة المحدودة من الأفراد دون أن يعني ذلـك أننا ننتقص من قيمة المشاركة الشعبية الواسعة في المواجهة والمقاومة ـ لأن التحرير والتحـرر في النهايـة هو إنجـاز الشعـوب ولكن هذه المشـاركـة التي تحـاول الأعمـال الأدبيـة الراصـدة (من فيتنام إلى كمبـوديا إلى أميـركا الـلاتينية إلى إفـريقيـا . . . ومن سجن البـاستيـل إلى معتقلات النازي) أن تشير إليها وتؤكـد عليها ، وإن اتسّمت بالشمول فإنها تفتقر إلى العمق مع شموليتهـا مما يلزم العمل الأدبي أن يمارس انتقاءً ما ضروريـاً في كل حال . . لأن العمق الـذي يختزن الـوهج بمـا هو ضـرورة فـنيــة ، يـبقـى محـدوداً بـفـرد أو أفـراد شواخص . . علامات . .

في الحـالة اللبنـانية ، حـالة المقـاومة في لبنـان ، والتي هي استعادة للجزائر والمختار والقسـام والحركـة المهـدية وآسيـا الوسـطى والإمام شـامل الـداغستـاني والثـورة الإسلاميـة في ايران والمقـاومة الإسـلاميـة في أفغانستان (بلحاظ العموميـة الإسلاميـة) مع تـطور

نوعي ملحوظ وقاطع ولا لبس فيه .. في هذه الحالة هناك شمول وهناك عمق يساوق هذا الشمول ، يوازيه ويساويه .

في البداية كانت قرى بعينها ، تبدو شاخصة وحدها في هذا المجال وعلى حساب القرى الأخرى ، وسرعان ما ثبت أن هذا الشخوص هو لحساب القرى الأخرى ، ثبت أن النهوض العام ليس خارج التاريخ . بمعنى أنه لا بد أن تكون هناك بدايات تأتي من وتستند إلى العام من الموروث الثقافي ومجمل القيم والوعي والإيمان ، ثم ينكشف أن اجتراح الجهاد والحركة واختراق مظاهر السكون العام والخوف والدهشة في الآخر المعتدي ، .. أن البدء بالجهاد ليس أكثر من خصوصية أو تنويع على العام ، تأتي منه تترجمه ولا تنافيه تكمله وتبقى محكومة به متطابقة مع قوانينه .. تصبح الخصوصية كما لو كانت عابرة عندما تتحول البداية إلى مجرد بداية ، لا يتوقف السياق عندها ، وينكشف أن النهوض العام هو امتداد لتاريخ وحالة تاريخية ربما تكون قد أغفلت أو أُسقطت من الحساب ولكنها كانت من العمق بحيث ظهرت ساطعة وأغشت كثيرين ممن يحدِّقون فيها .

ما كان متيسراً لقرى جبشيت ومعركة وطورة وبرج رحال والزرارية والبازورية وعربصاليم أن تبلغ الذروة في ألقها النضالي وأن تحتفظ بوهج بداياتها لو لم تتواصل هذه البدايات ليعم الجهاد والشهادة سائر القرى ، وما كان لنا أن نضع استشهاد الشيخ راغب حرب في سباق الجميل والفاعل . . . لو لم تتحول الحسينيات والمساجد إلى مستودعات ذخيرة بشرية وروحية ومادية للقتال ويتحول شعار « الله أكبر » إلى كشاف يضيء القلب ويكشف عورات العدو النفسية والحضارية والعسكرية .

وأن يطلق العدو الرصاص بعصبية (تثلج الصدر) على صور الإمام الخميني والشهيد الشيخ راغب حرب في قرى الجنوب ، وأن يستعيد أهلنا كل مجالس التعزية الحسينية التي سمعوها عن كربلاء وأهل البيت وجهادهم وصمودهم على قلة الناصر . . . وما عانوه في سجون الطغاة دون أن يعطوا الدنية في دينهم .

وأن يتحول معتقل أنصار إلى منتزه . . إلى مسجد ومدرسة وميدان تدريب على سائر فنون

التحدي . . . وأن تتسامح إسرائيل مع هذا أو ذاك من الفئات والأحزاب الوطنية واليسارية قليلاً أو كثيراً ـ وأن تضع رجال الدين بين خيارات محددة (القتل أو الأسر أو النفي أو السكوت !) . . كل ذلك يشير ، بل يدل على أن هنا حالة حضارية شاملة واسعة متقاربة الأعماق متسامتة ، بحيث يصعب أو يستحيل معها الإنتقاء . . انتقاء الفرد أو المجموعة ، المحور ، فالحالة كلها نموذج وكلها محور والتفكيك اعتداء وتسطيح . . .

وحتى لو حصل الإنتقاء ، عندما يجد البعض نفسه ملزماً فنياً به ، على صعوبته ، فإن المحور المنتقى لن يتم اختياره على أساس شمولية الدلالة وكثافتها .

من يجرؤ أن يختار الشيخ راغب حرب شخصية محورية في عمل أدبي . . . أو واحداً من شهداء معتقل أنصار (خضرا ، درويش ، بليطة) أو مشايخ هذا المعتقل (حرب ، شمس الدين ، عارفي ، قبيسي) دون أن يأخذ في حسبانه الحالة الحضارية الإيمانية التي صدروا عنها ؟

لا يمكن تعرية الرموز من عموميتها في هذه الحالة . . ومن هنا الفراغ في هذا المجال . . . فراغ لأن الشكل الأدبي التقليدي اللا اسلامي ، الغربي لا بد أن ينتقي ، لأنه مفصل على حالة حضارية تتيح الإنتقاء بل تستلزمه وتستوجبه ، لأن الحالة الحضارية غير الإسلامية لا تعطي الفعل التاريخي لأكثر من فرد أو مجموعة أفراد هي التي تنجز الحدث . . لأن طبيعتها إنفصالية طبقية في النهاية . . بينما الإسلام هو مشروع الأمة وهو إنجازها دون أن يعني ذلك حذفاً لمواهب الأفراد وخصوصياتهم ، بل هو توظيف للخاص في العام ، حيث يتماثل الخاص مع العام . والخاص هو الذي يسعى إلى هذا التماثل ويتطلبه لأنه يجد نفسه فيه .

إنَّ الحالة الحضارية الإسلامية التي أنتجت هذا الإندحار للحضارة الأخرى مكثفة في إسرائيل ، هذه الحالة الإيمانية ، مفاجئة لم تكن في الحسبان . . والأديب الحديث المتضرب ، إذا أراد أن يتناول موضوعاً بهذه السعة وناتجاً عن حالة هذه هويتها ، فلا بد له أن يخرج من جلده ولغته ومنظومة

القيم والأفكار السياسية التي تربى عليها وأنتج في جوها . . لا بد أن يضرب صفحاً عن مجموعة الأخطاء التي ارتكبها في قراءته ، في كتبه ودفاتره والحبر الذي استعمله وربما اضطر إلى التعديل في شكل وجهه ولباسه وربما اضطر إلى طلاق زوجته بعد طلاق حزبه .

اذن من يتصدى ؟

هنا تجد المفارقة .

الأديب الحديث ـ اليساري أو اليميني ـ له لغته وله حقول ومجالات يحسن السفر إليها والتجول فيها ولكن ما يحدث ليس من شأنه وإذا ما حاول أن يعتبره من شأنه فإنه لا يمتلك لغته .

والكاتب الإسلامي ، لم يحدد اختياره الأدبي بعد وإذا ما حدد هذا الإختيار والتحديد ليس ايديولوجياً وحسب على أن هذا ليس استبعاداً تعسفياً للإيديولوجية فالإختيار في منظوري هو تطبيق للإيديولوجية على العمل الأدبي وفي عملية التطبيق ، داخلها ، داخل مسارها وآلياتها يكمن الإختبار والتميز والجدارة . وإذا ما حاولنا أن يكون هذا

التطبيق سريعاً ودون معاناة وشكلياً ومتوخياً للسهولة واليسر فإن ذلك سيكون تطبيقاً قسرياً يوقعنا في أدهى مما وقعت فيه الشيوعية من ابتذال . لي اقتراح سريع قد يكون مدخلاً إلى إنضاج رؤية في هذا المجال ، مجال التشكيل التعبيري الأدبي للحدث الإسلامي وهو أن نجزّىء الحدث بالكامل ونتعاطى تعبيرياً مع كل الأجزاء بحيث تستغرق المعالجة جميع المفردات ونكشف عن تواصلها لنصل بذلك إلى رفع المشترك - الحالة الحضارية الجامعة - إلى مستوى من الوضوح يناسب مستواها على الأرض . على أن يستكمل ذلك بالتعاطي الوضعي العام للحالة كلها دون تجزئة . . مع التركيز على العموميات . . وهنا تكون المقالة الأدبية - الخاطرة أو مجموعة الخواطر - شكلاً مناسباً على أن تتحول مجموعة الخواطر إلى ألوان متآصرة دراميأً تعطي بمجموعها هوية اللوحة دون أن تقصر في ابراز جمالياتها هنا نكون قد جمعنا بين الإرتقاء من الجزء إلى الكل وبالتالي من الجزئي إلى الكلي كما نكون قد انحدرنا من الكلي إلى الجزئي أو من الكل إلى الجزء لتكون حركة العمل الأدبي اكتشافاً للعام من خلال الخاص أو تطبيقاً غير قسري للعام على

الخاص . فنتجنب بذلك أحادية المدخل والأسلوب في التعبير الفني .

أيار ١٩٨٥

٦ ـ التمايز الأدبي ـ عود على بدء ـ

كان لا بد لي ان ادرك حجم المغامرة في دعوتي اعتماد المقالة الادبية ـ الخاطرة ـ شكلا ادبيا يتيح لنا كمسلمين فرصة متميزة للتعبير نتخلص بها من ضغوط الضوابط والقواعد القسرية للاشكال الادبية الاخرى باعتبارها اشكالا غربية المنشأ والهوية ومتطابقة مع خصوصيات الحالة الغربية ـ الذهنية والثقافية والاجتماعية والنفسية ـ مما يجعلها قهرا في حالة معاندة ومنافاة لخصوصيات المجتمع الاسلامي التوحيدي .

والاصرار على الخصوصيات هنا يحكي اصراراً اخر هو الاصرار على التميز عن الاخر ، هذا

الاصرار على التميز بذاته مبرر لأنه شرط لحفظ الذات وصيانتها ، خاصة وان مخاطر التماهي مع الاخر ، مع وجود الخصوصيات كثيرة ولعل منها استحالة هذا التماهي منهجيا مما يستلزم تميع الذات وضياعها وفي امثالنا الشعبية يكثر الحديث عن الغراب الذي اراد ان يقلد مشية الحجل فلم يستطع وعندما اراد العودة الى مشيته كان قد نسيها .

ان السعي الى التماهي لا بد ان يأخذ في اعتباره ان في تكوين اي مجتمع ثوابت ومتغيرات . . وفي المجال الادبي كذلك . واذا لم يكن هناك من يحتمل امكان التماهي في المضمون من حيث هو نقيض وثابت في حدود المطلق ـ الا في حالة الالتزام المذهبي الايديولوجي بالماركسية حيث يصبح هذا الوهم قائما في ذهن الماركسي بصرف النظر عن استحالته ـ اذا كان الامر كذلك فان الحديث عن التماهي لا بد ان يكون حديثا عن الحقل الذي يحتمل فيه وهو المتغير . . والمتغير في الحقل الادبي هو الشكل ، على ان الكلام هنا ليس مطلقاً ، اذ ان هناك اشكالا في التعبير ليست علاقتها بالمضمون قشرية او آنية فهي جزء أو الجزء الصلب منه ،ـ الشكل القرآني مثلا -

اما المتغير من الشكل فهو ما كان بالامكان المساس به وفصله عن المضمون دون المساس بهذا المضمون ، على ان هذا لو كان ليس مطلقا كذلك ، بل قد يكون الفصل اقتضاء تاريخيا مشروطا اي تقتضيه مرحلة بعينها وقد تكون هذه المرحلة ، مرحلة بداية او تكوين او ضعف ثم لا تلبث ان تتبدل الظروف لتلغي عملية الفصل - كان اليهود والنصارى في المدينة يتركون شعرهم الشائب بدون خضاب فأمر الرسول (ص) المسلمين بالخضاب وبعد وفاة الرسول (ص) حاول المسلمون معرفة ما اذا كان الأمر بالخضاب مستمرا على نحو الايجاب فسألوا الامام علي فأشار الى ان ذلك الأمر - وجوبا - انما كان لضعف في المسلمين وضرورة تميزهم حتى لا يضيعوا في اشكال الاخرين اما وقد انتشر الاسلام وقويت شوكته فامرؤ وما اختار ونحن الان على رأس اربعة عشر قرنا نستطيع القول بان مرحلتنا تشابه الى حد كبير مرحلة التأسيس مما يقتضي ان نتمسك بحساب التمايزات في الشكل ايضا ، حتى الشكل المنفصل عن المضمون او التماس معه من بعيد - اذا كان هناك انفصال - نحن مضطرون للحرص عليه الان . .

فكيف بالشكل المتصل ؟ والشكل الادبي مثلا ؟ هذا اذا لم يساورنا وهم بان الانتاج الادبي يمكن ان يكون عفويا وذاتيا محضا وان تتضخم ذات الاديب خارج متحده الاجتماعي ، خارج الكل ، الى حد امكان الانفصال التام وغياب الالتزام الكلي ، الطوعي او القسري الواعي او غير الواعي الطالع من الداخل او النازل من الخارج ، بالقواعد العامة للواقع الاجتماعي منشأ ومؤشرات تطور، قيما ومطامح ومشاعر . .

اذن يصبح الاصرار على التميز بما يستلزم ، اصرارا وظيفيا ، بمعنى انه بدونه لا يمكن ان يكون هناك انتاج ادبي مقبول وملائم وجميل . لا اعتقد ان هناك جدلا ومشاحة كثيرة حول هذا الكلام . وانما الجدل والمشاخة في ان يصل الاصرار على التميز الى حد اطراح كل اشكال التعبير الادبي القائمة ، والمشاحة يمكن ان تحصل ، لأن البعض ربما يجد في ذلك كارثة واشكالا .

كارثة لماذا ؟ لأن بين ايدينا ركاما هائلا من الانتاج المسرحي ـ النثري والشعري ، والغنائي

والاستعراضي - والروائي والقصصي - الموضوع والمترجم - طبع السوق الثقافية العالمية واستغرقها وحددها . . فماذا نفعل به ؟ وكيف نتجاوزه او نخترقه او نتميز تميزا كاملا عنه ؟ أليس ذلك هدرا ؟

هنا نقع في الارقام في الكم الذي لا بأس من اخذه بعين الاعتبار بشرط ان لا نترك الارقام بدون روح ، عمياء او ان تمتثل لروح شيطانية تسكنها وهي بعيدة عن هواجسنا ومنازعنا واحلامنا . .

على المستوى السياسي ايضاً هناك اكتساح للساحة العالمية والعالم مقسوم بين شرق وغرب والى سنوات خلت كان حسابنا مطويا ومع ذلك ها نحن قد دخلنا في الحساب بقوة والذين يدخلوننا الان في حسابهم ، من صديق او عدو ، انما يبدأون بالحساب والتقييم لنا من نقطة التمايز الكامل مع الاخرين . هذا اذا لم نذكر المستوى السلوكي السائد عالميا . . والا كيف نفكر بالحجاب ومنع الخمرة والرذائل الاجتماعية اذا لم نقدم انفسنا بكامل تميزنا هذا التميز هو وحده الكفيل باعطائنا شرعية طرح شعارنا ، شعار اقتلاع الاسس التي قامت عليها المسلكية

الاجتماعية والفردية المعاصرة . والا فماذا نفعل وما المبرر ؟

ماذا فعل الاسلام ؟

وفي فجر الدعوة كانت هناك ثقافة سائدة ايضا ماذا فعل الاسلام ؟ لندرك ماذا فعل حتى ندرك ماذا نفعل لا بد من استعراض للخلفيات وتفقد ما اذا كانت ما تزال قائمة بكل ما تقتضيه في بنيتنا ؟ فقد كان هناك هم رسالي وكان هناك ازمة . . الهم الرسالي تجسد او تجلى في القرآن ـ صوره القرآن وقدم البديل الكامل والصريح والجميل . . واما الازمة فقد كانت هناك حضارتان روم وفرس وحضارات اخرى اقل شأناً، هندية وصينية . . الخ وكانت نظرتهم الينا دونية ـ كنا اميين في نظرهم ﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل﴾ حتى انهم لم يكونوا يرون فينا أهل للوفاء بالدين حسب منطوق الآية .

والآن هم كذلك ونظرتهم الينا كذلك ولكن ازمتهم في الماضي لم تمنع من ان يستقبلوا مشروعنا الحضاري الرباني استقبالا سريعا ومدهشا لأنهم كانوا

في ازمة . والان هم في ازمة الا اذا كنا ما زلنا نأخذ بمنظورهم في تحديد التقدم والتخلف ونصنف انفسنا متخلفين قياسا عليهم . وكما ان فينا جاهلين الان يذهبون هذا المذهب كان فينا في فجر الدعوة جاهليون حاولوا ان يربطوا بين الرسالة والغنى المادي وخاطبوا النبي (ص) قائلين : « قد علمت انه ليس احد من الناس اضيق منا بلادا ولا اقل مالا ولا اشد عيشا منا فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير لنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها انهارا كأنهار الشام والعراق » وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا﴾

فماذا كان جواب الرسول ؟ اجاب بلسان الوحي ﴿قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا﴾ .. وكان هناك صورة مطابقة لهذه الرؤية على المستوى الثقافي كما ان هنا الان تغريبا مساوقا للدونية الحضارية (وكان النضر بن الحارث ممن ناصبوا النبي العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس فكان اذا

جلس رسول الله (ص) مجلسا فذكر فيه بالله خلفه في مجلسه اذا قام ثم قال : « انا والله يا معشر قريش احسن منه حديثا ، فهلم الي احدثكم احسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وفيه نزل قوله تعالى :﴿اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين﴾ والاشكال الذي يمكن ان يطرح بعد هذا كله هو اي شكل ادبي نعتمد اذن ؟

في حديث خاص مع الاستاذ روجيه عساف قلت له : اذا بقيت مصرا على الاستمرار في تطوير رؤيتك للمسرح ضمن هذا المسار الذي تتبعه منذ (العبر والابر الى ايام الخيام) فانك لا بد ان تنتهي الى هدم الشكل المسرحي نهائيا والكف عن العمل في حقل المسرح . . وكنت قد سجلت هذه الاشارة وهذا التوقع - على حياء مني - في بعض ما كتبت ولكن عساف فاجأني قائلا . . وليكن . . اذا كنت مسلما ورأيت ان المسرح هو وعاء غربي يصادر مني اسلامي . . فلينهدم ولأكف عن النشاط المسرحي .

اذن فالمهم ان تصل المسألة الى حالة من الاشباع النظري والعملي حتى تصل نهاياتها المنطقية . وعندما

نزل القرآن الكريم واصاب المشركين ما اصابهم من حيرة وذهول . ادى بهم الى رفضه رفضاً كاملا ، كان هذا الرفض تعبيرا مساوقاً للتصور بان مضمونه ـ اي القرآن ـ قلب كامل للوضع القائم بكل قيمه ومعاييره ومن هنا كان رعبهم الذي بثه في اوصالهم ما عاينوه من خلفية قرآنية توحيدية ، توحد بين التعبير وخلفياته بين الشكل والمضمون ، مما يتنافى مع وثنيتهم وانفصاليتهم وفصلهم للمستويات المتعددة للبنية الاجتماعية الواحدة مما يتيح لهم التسلل الى مفاصل حركة الفكر والمجتمع للتحكم بها وتقييدها بمزاجهم ورغباتهم .

الاستفادة من التراث

وقتها لم يثر المسلمون اشكالا فيقولوا : ماذا نفعل بهذا التراث الهائل ؟ ومن ثم وعلى مدى القرون التي تلت لم تقف عقبة ثقافية اسلامية دون الاستفادة من التراث الجاهلي (بصرف النظر عن الاستفادة التقنية منه في النحو والصرف والمعاني والبيان لغاية قرآنية ودينية واضحة) الذي حصل هو انه قد اصبح هناك منهج فكري واخلاقي يحكم العلاقة والاستفادة له

ضوابط وله غائية محددة . يروي محمد بن مسلمة الانصاري يقول : « كنا يوما عند النبي (ص) فقال لحسان بن ثابت : انشدني قصيدة من شعر الجاهلية فان الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايتها فأنشده قصيدة للاعشى هجا بها علقمة بن علاثة :

الناقض الاوتار والواتر

علقم ما انت الى عامر

فقال النبي (ص) « يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا » فقال : يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟ فقال النبي (ص) : « يا حسان اشكر الناس للناس اشكرهم لله تعالى وان قيصر سأل ابا سفيان عني فتناول مني - وفي خبر آخر فشعث مني - وانه سأل هذا عني فأحسن القول » - رواه ابن ابي الدنيا في قضاء الحوايج وابن عساكر .

ولعل هذا المنهج هو الذي جعل الافادة في العمق وادخل التراث في اطار وظيفي مشروع ومطلوب ومنتج وهنا تحسن ملاحظة آثار مثل حماسة ابي تمام (١٨٨ - ٢٣١ هـ) والمفضليات للمفضل

الضبي (ت ١٧٨ هـ) واصمعيات الاصمعي ٢١٦ هـ وجمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي (؟) ومختارات شعراء العرب لابي السعادات هبة الله بن الشجري (ت ٥٤٢ هـ) في الشعر وفي النثر ـ الذي لم يخل من شعر ـ صبح الاعشى للقلقشندي (ت ٨٢١ هـ) والامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) اضافة الى كامل المبرد وعقد ابن عبد ربه وغيرها من المجاميع المماثلة من حيث كونها قد تضمنت محاولات لاستعادة وتأكيد جماليات تعبيرية مختارة من التراث ومن ضمنه التراث الجاهلي وتشتمل على انماط متماثلة من القيم .

هذا وقد حصل انقطاعنا الحديث (بفعل الحداثة او الارتخاء امام الحداثة) عن التراث الادبي الاسلامي من ضمن انقطاعنا عن مجمل الفكر الاسلامي عندما تسربت الثقافات الاخرى ـ الفاصلة ـ وتدخلت الاشكال والقيم التعبيرية والاخلاقية الجاهلية في سياقنا الذهني والسلوكي ، وهذا الانقطاع لم يكن عفويا وانما تم على اساس من محاولة التماهي مع الاخر ، هذا التماهي الذي ما

كان ولن يكون له سوى نتيجة واحدة هي فقدان الهوية دون الحصول على شرف هوية الآخر المستحيلة ، وتصبح الهوية هوية (بدل عن ضائع) او مكتوم او جنسية قيد الدرس حسب التعبيرات المتعارفة في دوائر الجنسية. او هوية (دعه يمر) - حسب تعبير دوائر الجوازات - ولسفرة واحدة بالطبع ، بعدها ينعدم وزن المسافر ويذهب ليبحث عن موظف آخر يقدم له رشوة اخرى او عنصر مخابرات يقدم له خدمات محددة ليسعى له بورقة اخرى يمر بها من مركز حدود اخر. وهكذا الى ان يموت او يحدث الانقلاب العسكري في بلده الحديث التابع المتقدم الديمقراطي ، فيعود وقبل ان يتعرف اليه ولده الذي تركه رضيعا ويأنس له يحدث انقلاب أخر فيضطر للخروج ثانية الى حدود حديثة اخرى .

خلاصة :

يمكن ان نواجه في مرحلة انتقالية كمرحلتنا نوعا من الارباك شبيها بذلك الذي واجهه المسلمون في فجر الدعوة وجعل الانتاج الادبي يتراجع كميا ولكنه ما لبث ان انطلق مع خصائص نوعية جديدة كان مصدرها القرآن الذي اربكهم بحجمه البلاغي ،

المعجـز ، واذهلهم وجعلهم يحسـون بـاستحـالـة مجاراته .

ولكن ما لبث ان اصبح مأنوسا لديهم ومحفزا لهم على الانتـاج مؤكـدا ان لهم منـاطق فـراغ ـ ليست هـوامش ـ عـلى قـاعـدة القـرآن والعقيـدة ، تتسـع بـاستمـرار لابـداعهم وتستـدعيـه . واقلعت سفينـة الانتاج ثانية .

اما نحن الان ـ وهذا الفـارق لصالحنـا ـ وان كنا نبـدو وكأننـا امام نـزول القـرآن لتـوه نتيجـة الفـاصـل الذهني واللغوي الـطارىء ، فاننـا نتميز عن الاوائـل بـاننـا عـلى وعي بـالاشكـال اكـثر . . . مسلمـون ، ومنتهى مـا هـو مـطلوب هـو ان نقف امـام التحـدي وننقـل اسلامنـا من حالـة التربص والحلم الى حـالـة الانتاج والتبلور .

ان كتابا كنهج البلاغة ومساهمـات متناثـرة انبثت في آثار العقود الاولى من تـاريخ الاسـلام اضافـة الى ادب السنـة ، تشير الى ان مـا توهم انـه احباط كـان الايمان والجدية في حمل الرسالة وتقديمها قد ألغياه لدى النخبة المؤمنة .

ولعل نظرة الى البدايات في التاريخ - كتابة التاريخ الاسلامي - ترينا الى اي مدى كان هذا اللون من النشاط الكتابي ذا طابع روائي امين ، واقعي وممتع ، بل من يستطيع ان يقول ان تجاوز اسلوب الحوليات في كتابة التاريخ قد استطاع ان يشكل بديلا معرفيا بالتاريخ ومجال امتاع افضل مما سبق ! كل ذلك انتج على قاعدة الاسلام وكان ملبيا للحاجة المعرفية والتطلب الذوقي والفني في نفس الوقت .

هل هي بالتالي دعوة الى الغاء الاشكال ؟

هي دعوة ولكنها غير متعسفة ولا مستعجلة .

هي دعوة لاعادة النظر ، لمزيد من اعادة النظر في مرحلة تقتضي ذلك . هي دعوة وطرح نظري يريد ان يكون تحريضا على الابداع لا خنقا له وتنفيذيا فلنجرب ، لنكتب الرواية والمسرح ولنتوسع في ذلك ، لنجرب تطوير الشكل والمحتوى باتجاه التوافق مع بنيتنا ووعينا الخاص . وعلى الطريق نكون قد انتجنا اشياء ذات قيمة وطورنا طرحنا النظري باتجاه نهاياته المنطقية من خلال العمل والانتاج ووصلنا الى احدى قناعتين فاما القناعة بعدم جدارة الاشكال الادبية المتداولة وضرورة استحداث اشكال

اخرى نكون قد تبينا ملامحها او علاماتها الفارقة واما القناعة بجدارة هذه الاشكال كما هي او معدلة بما تقتضيه الخصوصيات . وهنا ارى للمقالة ـ الخاطرة او مجموعة الخواطر ـ دورا وظيفيا ، فهي يمكن ان تكون مجالا يقربنا من النهج القرآني في تنويع السياقات التعبيرية مع احكام السياق الداخلي التوحيدي ، كما تتيح لنا انضاج ادواتنا التعبيرية بحرية كافية خاصة واننا نشكو من وهن لغوي باد . انها بالتالي ، وحتى اجل قد يطول او يقصر ، حسب نشاطنا ، مجال تدريبي يساعد على اختزان وتنمية اوليات ضرورية لاشكال تعبيرية مطلوبة . انه طرح للنقاش ، وسؤال حاول ان يترسم معالم جوابه .

حزيران ١٩٨٥

٧ ـ الأدب الإسلامي بين
غضب اليمين وحنق اليسار

التغريبيون ـ الغرباء ـ في ثقافتنا فصيلان يمين ويسار . قد تكون لبعضهم صفات ونعوت أخرى ، ولكنها تبقى ثانوية . . إسلامية كانت أو قومية أو وطنية .

اليمين ، يعيش مرحلته ، المرحلة التي دشنها سياسياً بعد الحرب الكونية الاولى ، بعد التجزئة والاستعمار ، بسببهما وفي حضنهما وظلهما . وقد كان هجس بها وبشر منذ الثلث الثاني من القرن الماضي . منذ أن دب الوهن في جسم السلطنة العثمانية ، وأصدر السلطان عبد المجيد ، مرغماً ، تنظيماته

الغربية ، التي لم يكن بامكانه رفضها ، بعد ما استكمل مسيرة أسلافه في نبذ الاسلام مضموناً ومنهجاً وسلوكاً ، والابقاء عليه شكلاً لتبرير ما ينافيه . . وبعدما تحولت هذه المنابذة ، هذه التعرية للذات ، الى هزال ضارب حال دون السلطنة ودون الاحتياط ضد أي اختراق أو إملاء لارادة أو ثقافة . . لو أرادت ! .

اليمين يعيش مرحلته ، وإن يكن قد صار على مشارف نهايتها ، الا أنه يعيشها . يرى الارض أرضه والحدود حدوده والناس ناسه والقلم قلمه والعلم علمه والدفتر دفتره والكتاب كتابه . . يكتب . . ينتج ، يمسك بمفاصل حركة المجتمع ويهيمن على مجاري ثقافته شرايين وأوردة .

وعندما تثمر حركة الثقافة الاسلامية ، المهمَّشة والمقموعة إعلامياً وتربوياً وفنياً وسياسياً وأمنياً ، الكامنة باستمرار كثقافة أصلية ، عصية وممتنعة ، وتغش أعداءها كثيراً . . المتربصة في العروق والجذور . . عندما تثمر هذه الثقافة إنجازاً حضارياً عالياً ، كثورة الاسلام في ايران التي كشفت ان

التغريب مكتوب بماء على الجلد . . أو كايقاع العقاب بالمنهج الساداتي ـ منهج التخلي ـ من خلال السادات وإنذار من يتبعون المنهج بأن لا يغتروا بيقظتهم الأمنية . ولا كثرة حراسهم إذا لم يحرسوا أنفسهم بالاستقامة على طريق القدس . . أو كطرد اليهود ومن خلفهم وامامهم عمقهم الحضاري العادي المعادي الممتد شرقاً وغرباً ، من لبنان أو ان تواطؤ اليمين ثقافة وسياسة وأخلاقاً مع اليهود على رذالاتهم . . . عندما تثمر ثقافتنا التي كانت ممنوعة ، ومع كل إنجاز يرتفع الصوت الاسلامي داعياً الى مسامتة هذا الانجاز وموازاته ثقافياً باقتحام المناطق المحرمة ، التي لا يملك من حرّمها أهلية التحريم . . أو التي كانت معطلة بسبب الانشغال بالأهم والأكثر الحاحاً أو خطورة . . مناطق الأداب والفنون .

عندئذٍ يشعر اليمين بأنه كان مخدوعاً ومبالغاً في طمأنينته الى غلبته واستتباعه للآخرين ثقافة وسياسة ومصيراً ومساراً ، وأن ما رتبه على الغلبة المتوهمة لم يكن الا أوهاماً . وأن راحته في معركته مع اليسار السهل سوف تنقلب قلقاً وعناء في معركته مع الاسلام الصعب .

ولأن اليمين هو الملك ، الذي يشعر أن عرشه هو المهدد بالسقوط وأن الاسلام هو الآتي هو رافعة الامة ومستقبلها . فانه يذهب ليحسم معركته هناك ، في السياسة ، مباشرة دون تضييع للوقت ، بما تستلزم السياسة في هذه الحال من حروب وتحالفات مع عداوات قديمة ، تعطى منوماً ريثما يتم تلافي الخطر المشترك ، الاسلام .

(يلاحظ هذه الايام الغزل المكشوف بين اليمين واليسار في لبنان من الشيوعيين الى الكتائب مروراً بالثانويين) .

ثقافياً . . ينتج اليمين وقليلا ما يتصدى بالمواجهة المباشرة للشأن الثقافي الاسلامي ، وهو يعتمد أسلوب الاختراق والتخريب العملي . . (تلاحظ نشاطات جامعة الكسليك والجبهة اللبنانية والانتاج الذي صدر عنهما بأسماء صريحة أو بأسماء مستعارة (لفؤاد أفرام البستاني وأدوار حنين وبطرس قزي وشارل مالك) .

ويتصدى اليمين مباشرة للخطاب السياسي الاسلامي ، بما هو تحريض ، مدان من طرفه

ومخيف ، لأنه يأتي من أصول فكرية وعقيدية متخلفة منافية للعقل وعصبية . . متخلفة لأنها ليست غرباً وعصبية لانها تنفي الآخر حسب مدعاه !

أما اليسار ، فلأنه طارىء ونبات بري ، ليس اليمين أصلاً بالطبع ولكنه طرأ مبكراً ، بينما اليسار ما زال طفلاً ، اليسار . . ولأنه عاجز عن التماس مع البنية التحتية بالتغيير لأنها مقفلة عليه ، فكراً وأخلاقاً من جهة ، ولأن اليمين استطاع أن يلتف على عملية الانتاج وقوانينه وعلاقاته ويجعل من هذه العملية مجالاً غير ملائم لتطبيق التعميم الماركسي التعسفي . مما ينقض عليه بنيانه النظري المادي الجدلي . من جهة ثانية . . ولأنه مشغول بالسياسة وحروبها ، من موقع محدود وتبعي وبدون أفق أو مؤشرات أو توقعات ، فانه يذهب مكرهاً الى البنى الفوقية ، الى الفكر والثقافة والفنون والأداب بنشاط ملحوظ لا يقلل منه الا يسيراً ما يمنى به اليسار من احباطات وخيبات أمل لم يكن له من داع .

ويحاول اليسار أن يضع هذه الاحباطات في حدود تاريخها وظروفها ، تحت مظلة المقولة التبريرية

التعويضية (حركة التاريخ لا تسير في خط مستقيم بل في خط متعرج . . وخطوة الى الوراء من أجل خطوتين الى الامام) .

والواقع يقول : بأن هذه الاخباطات ، حتمية لازمة ودائمة ، لغربة المنطلق وغرابته وقصور المنطق واستعصاء المجتمع وعدم قابليته على الامتثال للعموميات الماركسية . .

يقول أحد اليساريين العرب ـ محمد عابد الجابري ـ « يتبنى الفكر اليساري العربي المعاصر ، المنهج الجدلي ، ولكنه مع ذلك يجد نفسه في حلقات مفرغة . . لأن الفكر اليساري العربي المعاصر لا يتبنى ـ في تقديرنا ـ المنهج الجدلي كمنهج لـ « التطبيق » بل يتبناه كمنهج « مطبق » وهكذا فالتراث العربي الاسلامي « يجب » أن يكون انعكاساً للصراع الطبقي من جهة وميداناً للصراع بين « المادية » و « المثالية » من جهة اخرى . ومن ثمة تصبح مهمة القراءة اليسارية للتراث هي تعيين الاطراف وتحديد المواقع في هذا الصراع « المضاعف » وإذا استعصى على الفكر اليساري العربي القيام بهذه

المهمة بالشكل « المطلوب » وهذا ما حدث ، وهذا ما يقلقه ويقض مضجعه ألقى بـاللائمـة على « التـاريخ العربي غير المكتوب » أو تذرع بصعوبة التحليـل أمام هذا التعقيد البـالغ الـذي تتصف به أحـداث تاريخنـا واذا أصر بعض المنتمين الى هذا الجناح على اقتحـام الصعـاب فضلوا الـواقـع التـاريخي عـلى القـوالب النظرية . وفي هذه الحالـة فاذا لم يسعفهم « الصـراع الـطبقي » قالـوا بالتـواطؤ التاريخي واذا لم يجدوا مادية قالوا بالهرطقة . . هكذا تنتهي هـذه القراءة اليسـارية العـربيـة للتـراث العـربي الاسـلامي الى « سلفيـة مـاركسيـة » اي الى محـاولـة لتـطبيق طـريقـة تـطبيق « السلف المـاركسي » للمنهج الجـدلي . وكأن الهـدف هو البرهنة ، على صحة « المنهج المـطبق . . لا تطبيق المنهج » ـ الجابـري ـ نحن والتـراث المـركـز الثقـافي العـربي ، الـدار البيضـاء ط ٢ /١٩٨٢ ـ ص ٢١ ـ ٢٢) . . . إنها شهـادة وان تكن ناقصـة . . وبسبب الاسلام نرى ان الخلل في تطبيق المنهج والقصـور فيه ناتج من خلل وقصور في المنهج نفسه .

وان مـا بـدا في أعمـال السلف المـاركسي من

صوابية ظاهرة في تطبيق المنهج على الحالة الاوروبية . . انما هو كامن في خصوصية الحالة الاوروبية التي كانت وما تزال راهنة بصورة نسبية ومرشحة للزوال ، وتأتت من تحريف المسيحية كعقيدة مانعة وإنتاجها من جديد طبق الحاجة ومقتضات تطور القوى المالكة والحاكمة وعلاقاتها مما جعل التاريخ والحاضر الاوروبي الى حد ما قابلاً للتوظيف والتحليل الماركسي .

ينتج اليسار ، يواظب على الانتاج ، ولا يقدم وسائل اخرى في مواجهة الاسلام سوى الانتاج ، فهو يساوق اليمين في حرصه على الاختراق والتخريب - الاسلوب اليهودي الكلاسيكي - التقويض من الداخل الذي نجح مع المسيحية منذ البداية على يد بولس وفشل مع الاسلام رغم الجهود المكثفة بدءاً من ابن أخطب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن منبه وكعب الأحبار وانتهاء بالماسونية التي تقول التوصية الرابعة عشرة من بروتوكولات حكماء صهيون عن هدفها « تقويض كل أشكال الاعتقادات الاخرى حتى لو أدى الامر الى انكار وجود الله أصلاً فان ذلك لن يكون الا لفترة مرحلية يسهل بعدها الدعوة لديانة

موسى واخضاع الناس لحكم اليهود من خلالها »[1] .

واذا ما كان اليمين مهتماً ومشغولاً بمتابعة المهمة التي حددتها الفاتيكان ودوائر المخابرات الغربية وأنجز شطراً منها المستشرقون وبنوا تقاليدها ومناهجها ، ألا وهي التنقيب والحفر (أركيولوجي) في تراث الامم والشعوب للعثور على ما يمكن الاستدلال به ، لذوي النوايا المسبقة ، على الاصول اليهودية أو الهرمسية أو الحرانية أو النصرانية للفكر والعقيدة الاسلامية

---

(١) « ان الماركسية والفرويدية تستقيان من نبع التراث اليهودي ومن المحاولات اليهودية الدائبة لتقويض المسيحية والاسلام كديانتين حضاريتين » د . عبد المنعم حفني - الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية - دار المسيرة بيروت ط ١٩٨٠ - ص ٤ هذا فضلاً عن محاولة شبتاي تسفي لتقويض الاسلام من الداخل (١٦٢٦ - ١٦٧٦) وهو تركي أزميري مهووس . حكمت عليه السلطات العثمانية بتعكير الامن واستحداث فتنة دينية فأعلن اسلامه وتسمى باسم عزيز محمد أفندي . . وأعلن أنه لم يعتنق الاسلام الا ليسهل عودة اليهود الى الارض وان الاسلام عنده هو التوراة وان هناك الهين إله للعالمين وآخر لليهود نفس المصدر ص ١٢٩ . . . ويعقوب فرانك الاباحي الحلولي ١٧٢٦ - ١٧٩١ ، الذي ادعى النصرانية ليقوضها مع تقويض معاصره تسفي للاسلام « لانه في العصر المسيحاني لا ينبغي ان توجد الا ديانة واحدة هي اليهودية » نفس المصدر ص ١٥٠ .

وبالتالي اثبات دونية مالا ينحدر من هذه الاصول مما يتبقى من مفردات الفكر والعقيدة الاسلامية . . فان اليسار مشغول أيضاً بالتنقيب لاثبات الجذور المادية للفكر الاسلامي والمسار المادي للتاريخ بحيث يمسي التاريخ الاسلامي دعوة ، بدءاً واستمراراً ، انعكاساً للتطور في علاقات الانتاج ووسائله ويمسي الصراع في التاريخ الاسلامي صراعاً بين المادية والمثالية بين اليمين واليسار (راجع نص الجابري السابق . . واحمد عباس صالح اليمين واليسار في الاسلام . حسين مروة في كتابه عن المادية في الفلسفة الاسلامية والطيب تيزيني في مشروع رؤية للفكر العربي في العصر الوسيط . وحسين قاسم العزيز في الثورة البابكية ، أحمد علبي في ثورة الزنج ومحمد عيتاني في القرآن والمنطق الجدلي ومجمل مؤلفات هادي العلوي . . . الخ . اضافة الى ما ترجم عن الروسية لماركسيين مستعربين (لوتسكي وسيميلنسكايا) وغيرهم .

ينتج اليسار ، يخرب . . لا أحد يخرب ! . فالأصل مصون ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له

الحافظون ﴾ ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ .

أسلافهم حاولوا له تحريفاً ومعارضة وتشويهاً . . فقصّروا وقصروا . . . ويبدو ان الخلف بات على يقين بالاستحالة . . فليذهبوا الى الفروع وليخربوا ما شاؤوا فلسوف ينقلب عملهم حسرات عليهم .

ينتج اليسار ويقمع من على منابره ، يقمع بجرأة المطمئن الى غده ، الى أنه قاب قوسين أو أدنى من السلطة والذي تسول له نفسه المجاهرة بالدعوة الى تمايز في الانتاج الادبي الاسلامي على أساس ان التمايز على الارض قائم وصريح (في مواجهة اسرائيل وامتدادها الوطني والامبريالية وامتدادها اليميني (المارينز) واليساري (أفغانستان) .

الذي تسول له نفسه ذلك ، يراه المثقف اليساري وكأنه يضع الحجارة في طريق العربة التقدمية التي تكاد تصل ... !!! وعندما يدخل الصهاينة الى لبنان ، يبدأ اليسار باعداد نفسه للتكليف على طريقة راكاح وماتز بن ، مع الصهيونية لو لا أن يفاجئه الاسلام بتغيير المعادلة ، فيشرب

حليب السباع ويستعيد عنترياته .

لقد أثبت اليسار تصالحيته مع اليمين في اكثر من مكان وتاريخ ، كما أثبت توفيقيته التي تتسع الماركسية في طبعتها اللينينية لتبريرها (صلح بريست ليتوفسك) والتي جاءت الانتقالات الايديولوجية الشيوعية الاوروبية تحت وطأة الانكسارات المنهجية لتوفر لها الغطاء النظري الملائم .. في حين أن سلوك السوفيات كدولة عظمى محكومة بقوانين المنافسة وعوامل الجذب والتطابق مع (العدو الامبريالي) .. أعطتها مبررها السياسي .. الا مع الاسلام ، وهذا شاهد آخر على تصالحية اليسار مع اليمين والماركسية مع المسيحية (المهوّدة المغربة) والشيوعية مع الليبرالية في مواجهة الاسلام .. ان ذلك يكشف ويؤكد الجذر الغربي الاستكباري المشترك ، الحاكم على كل ما عداه من تمايزات خادعة لقصار النظر .

ان أعصاب اليسار الثائرة في وجه الاسلام الآن ، تكشف ان لدى اليسار ظناً قوياً بانتهاء مرحلة اليمين ، وأن مرحلة اليسار لم تأت ولن تأتي .. بل مرحلة الاسلام هي الآتية .. هذا ظن قوي لدى

اليسار . . ولكنه عندنا يقين أقوى .

ان المعايير التي يستخدمها اليسار في مصادرة الرغبة بأدب اسلامي متمايز ومتميز أصولاً ولغة وهموماً ومنهجاً ، نوعاً وشكلاً ومضموناً ، هي نفس المعايير التي يستخدمها اليمين . . حتى الآن لم تستطع المعايير النقدية اليسارية أن تثبت معياريتها وصلاحيتها النقدية وظلت خارطة اليمين هي الدليل . . هنا لا نرى مشكلة ، بل نرى ان الاصل المشترك تبقى تجلياته وتعبيراته واحدة ، تختلف في الجزئيات والتفاصيل وتتفق في الخط العام . الغرب وقيم الغرب وحضارة الغرب وأخلاق الغرب وملابس الغرب وذوق الغرب . . هي المعايير .

أدب إسلامي يرفض الغرب ، يبدأ من لغة وأمكنة وأزمنة وهموم وأوجاع وكتب وقيم وآمال وأحزان وأفراح وأعراس . . بعيدة عن تكوين الغرب !!! إذن الى أين ؟ إنه دمار وتخلف ويباس ويباب !! . ويغضبون . . يغضب اليسار واليمين . . وعندما يعبر اليسار عن غضبه علينا ، تطلع لغة اليمين ، مفرداته ، نقاطه وفواصله ، تطلع من عمق

اللاوعي اليساري ، أو من الوعي اليساري ، لأن اللاوعي هو وعي كامن قوي ومسيطر ، وفي المحكات والامتحانات يكشف أنه الوعي الارسخ وأنه يمين في اليسار .

هناك فئة ، قرأت باكونين وبليخانوف وبرودون ، على الاصل الماركسي ، فتمركست ، أو لم تقرأ بل سمعت من يتحدث عن فوضوية برودون تمركست إصطفت يساراً ، وفاجأها الانتظام في اليسار بتطلبات لم تكن في حسابها كالانضباط الحزبي والسياسي وحفظ الامثولات ، والتكاليف التي قد تصل الى حمل البندقية . فلم تجد متسعاً لمزاجها الفوضوي . . وجدت ستالين بدل برودون وسوسلوف بدل بليخانوف فهربت يميناً هذه الفئة لم تتعلم من اليسار الا الشراسة في المصادرة على الآخرين والادعاء بان الحقيقة في جيب بنطالها . . استصحبت الغرور الماركسي الى مرعاها اليميني .

عندما تقول : أدب اسلامي يردون عليك كما لو كنت قد قتلت أباهم ، هل يغضبون بالفعل اذا قتلت أباهم ؟ لا أظن . . انهم مثل ابن نوح (ع) . .

انهم ينكرون دمهم .

ان الالحاح على كشف الاصل الغربي للثقافة السائدة يميناً ويساراً ، ليس كافياً لتفسير التصالح على العداء للاسلام والثقافة الاسلامية .

دعوانا ان الاصل الاصل للثقافة الغربية الأم هو التوراة . . ومن هنا ينبع عداؤها للاسلام ، والذي يتكون يميناً ويساراً ، ويبقى توارتياً . . وحدها التوراة هي التي تفسر وتكشف وحدة المورد والمصدر . . ان ذلك ما ينبغي اثباته . .

آب ١٩٨٥

٨ ـ الوحدة والتجزئة

وإشكالية البحث والوعي

لقد بدا لي من خلال وجودي في طهران على مدى ثلاث سنوات ومن خلال ما تيسر لي من التعاطي مع حركة الفكر الإسلامي . . . هذا التعاطي الذي ينبغي أن يكون أوسع وأعمق لولا أن الهم السياسي المباشر وتتابع الأحداث وتسارعها يحد منه ويسطحه . وذلك أمر لا بد من الإلتفات إليه حتى لا تتوارى الثقافة إلى المرتبة الثانية أو الثالثة من اهتمامنا . . بدا لي أن هناك آثاراً للتجزئة ما تزال لاصقة بأذهاننا ، كامنة في بعض من نواحي حركتنا الفكرية . أقول كامنة ، ولعلها ، إلى وقت قريب

مضى كانت ما تزال متحكمة في كثير من مستويات هذه الحركة . . في حين كان ينبغي - إن لم يجب - أن نعمل ونعمد إلى تجاوزها ومنع تحكمها ، منذ أمد بعيد - منذ أن اتضحت آثارها السلبية - وإخراجها من مكامنها حاضراً ، بالسرعة والعمق المطلوب .

وإذا كان مشروع السلطة الجائرة يستند إلى خلفية ثقافية معاندة ، منافية ونافية للإسلام ، بما كان يقتضي هذه السلطة أن تمارس إلى جانب قمعها السياسي والإقتصادي والجسدي ، قمعاً ثقافياً ، بنفس المستوى من العنف حتى تزرع ثقافتها المستعارة وتفرضها وتحد من إمكانية التصحيح في المجال الثقافي النقيض - الإسلامي -. . . ولكن بعض محاولات التصحيح الناجحة ، في المجال الفلسفي والإجتماعي العام ، إضافة إلى استمرار النهج الفقهي على عناده وتبلوره بحثاً وانتشاراً وانتاجاً واستيعاباً للمستجدات . . كل ذلك يدل على أن التصحيح الثقافي في الظروف الصعبة والمعادية ، بقدر ما يكون عميقاً ومؤثراً ، حتى يظن البعض أن زوال القمع قد يؤدي إلى استرخاء ثقافي يتراجع معه الإنتاج كماً وكيفاً بسبب تعميم الإنشغال والإشتغال بالشأن السياسي

المباشر . . . ومن هنا فإن عدم إنجاز الإجهاز على مخلفات التجزئة في حركتنا الفكرية لا يعود إلى صعوبته أو استحالته نظراً إلى الظروف ، بل يعود إلى كون هذه المخلفات قد تغلغلت إلى حيث أصبحت خارج مجال الرؤية أو الإثارة أو التحدي . وهذه بذاتها مسألة يجب إطالة الوقوف عندها . أقول ذلك وأمامي كشاهد « الحروب الصليبية » كنموذج لإشكالية البحث التاريخي والوعي الإسلامي بهذا التاريخ ، على أرضية الواقع الثقافي الإيراني كنموذج إسلامي ، كذلك يمكن تطبيقه على مصاديق أخرى منها الحروب الصليبية في مناطق أخرى من عالمنا الإسلامي ، ومنها مسائل أخرى ذات حضور ساطع في إيران وغيرها وبينما لم تصل إلى حد ان تشكل مسألة فرعية في الإهتمام الثقافي العربي .

قد يمكن القول بأن إيران « الوطن » ظلت بعيدة عن الحروب الصليبية . على أن هذا الحكم قد يكون فيه من المغامرة الكثير وأمامنا بعض الوقائع التي تعطيه طابع المغامرة

يقول الدكتور عبد النعيم محمد حسنين في كتابه

« إيـران والعـراق في العصر السلجـوقي » : « وكـان السلطان محمود سلطاناً عـلى دولـة سـلاجقـة العـراق (زمـن الحـروب الصـليبيـة هـو زمـن الـدولـة السلجوقية) . التي يخضـع لنفوذهـا الجزء الغـربي من إيران والعراق (هناك أيضاً دولة للسلاجقة في الأجزاء المتبقية من إيران) بعد أن سمح السلطان سنجـر لابن أخيه محمود بعد انتصاره عليه بأن يظل حاكماً على هذا الجـزء مـن دولـة السـلاجقـة وأن يحتفظ بلقب السلطان ، غـير أنه لم يسلم من منـافسة اخوته عـلى عرش سلاجقة العراق ففي عام ٥١٤ للهجرة ١١٢٠ ميـلادي ثـار عليـه أخـوه مسعـود حـاكم المـوصـل وأذربيجـان ووقعت الحـروب بـين الأخـوين وانتهت بـانهزام مسعود وأعـوانه واضـطراب الحـالـة في هـذه المنطقة إلى تمـرد حكـام جـورجيـا الـذين كـانـوا من النصارى فأخذوا يغيرون على بلاد المسلمين منذ عـام ٥١٣ هـ ١١١٩ م ، حـين كـان السلطان محمود مشغولاً بقتال عمه سنجر ولم يستطع طغرل أخو محمود أن يقف في وجههم فـأمعنـوا في بـلاد المسلمـين نهبـاً وتخـريبـاً وقتـلاً وتقـدمـوا حتى بلغـوا مـدينـة تفليس فحاصروها حصاراً شديداً حتى اضـطرت إلى التسليم

في عـام ٥١٤ هـ ١١٢٠ م بعـد بضعـة شهـور من حصارها وزادت الحـرب بين محمـود وأخيـه مسعـود الـوضع في تلك المنـاطق اضطرابـاً ، وكـان السلطان محمود يقيم في همذان بعد انتصاره على أخيه ، فشكـا سكان أذربيجان إليه من كثرة غارات حكام جـورجيا عليهم وطلبوا منه أن يحميهم من هذه الغارات فـأعد جيشـاً كبيـراً وقـاده إلى أذربيجـان في عـام ٥١٦ هـ ١١٢٢ م فلما وصـل إلى تبريـز تحصن فيها وانضم إلى جيشه متطوعون من أهل شروان فسار لقتـال المغيرين وصمـد لهم وتمكن من الإنتصار عليهم في عـام ٥١٧ هـ ١١٢٣ م وطردهم من بلاد المسلمين (١) .

هذه حرب صليبية على أرض إيران وعلى أرضيـة التجزئة والصراعات الداخلية ، كما كان قد حصل في المشرق على أرضية التجزئة بين سلاطين السلاجقة في بـلاد الشـام وبينهم وبـين الفـاطميـين في مصر وبـين دويـلات إفريقيـة والأنـدلس في المغـرب . ولعله من

(١) دكتور عبد النعيم محمد حسنين - إيران والعراق في العصر السلجـوقي . . دار الكتاب اللبنـاني ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ م ط ١ ص ١٢٦ - راجـع أيضاً في ابن الأثـير - الكامـل في التاريـخ - سنـوات ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٦ - ٥١٧ .

وبالنظر إلى طموحات الثورة الإسلامية على الصعيد الإسلامي العام يصبح هذا الربط أوضح وأولى ،عام ٦١٩م كان كسرى أنو شروان قد احتل مصر وحاصر القسطنطينية مروراً بسورية وفلسطين والأناضول ، واقتاد بطريرك القدس « زكريا » أسيراً ورفض طلب هرقل الصلح قائلاً : « إنك تدعي بأنك تضع ثقتك بالله ، فلماذا إذن لم يخلص من يدي مدن دمشق والفرس والإسكندرية ؟ » ولكن هرقل عاد ففك الحصار عن القسطنطينية وتعقب كسرى إلى همذان فخلع كسرى عن العرش سنة (٦٢٨) وسنة ٦٣٠ دخل هرقل القدس . . تلك هي تفاصيل حزن المسلمين وفرحهم حسبما جاء في مطلع سورة الروم **﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء﴾** وعندما حزنوا وفرحوا ، في الحالين ، كانوا ينظرون بمنظار حضاري لا يربط حركة التاريخ أو يحبسها في أطر جغرافية ضيقة ، بل يرى إلى التكامل ويرى إلى انتصار المجوس وما فيه من تعويق لعملية التصحيح الرباني الرسالي .

هذا المنهج لا بد من استعادته . لأنه هو مائزنا ، لا بد لنا من أن نهتز في العمق ، اهتزازاً نستثير الوعي والعقل معاً ، عندما يسقط جزء من ديار الإسلام تحت ضربات الأعداء الحضاريين إن التجزئة التي أسسها حكام الجور ، هنا وهناك ، ورسخها المستعمر وصنائعه قد ذهبت قيمها عمقاً في بنيتنا الذهنية وفي سلوكنا مستفيدة من حالة من غياب الوعي ، أو تركز هذا الوعي في مقطع تاريخي دون آخر ، وفي كل حال ضمن حدود التجزئة ، وإن تعدى هذه الحدود فنادراً ما يكون ذلك ، وبصورة لا تنافي التجزئة . . هكذا انسحبت الحروب الصليبية أو سحبت من اهتمامنا هنا في إيران أو هناك في شبه القارة الهندية . في أندونيسيا مثلاً ، رغم أننا هنا وهناك وهنالك ما نزال نواجه أشكالاً متنوعة لهذه الحروب الصليبية الأم . وبالمقابل فإن الذين واجهوا الحروب الصليبية الأم وأشكالها وتعبيراتها المعاصرة مواجهة مباشرة عبر الصهيونية والإستعمار الإستيطاني أو الإحتلالي المباشر أو غير المباشر ، في بلاد الشام وشمال إفريقيا بصورة خاصة ، لم يكونوا على مستوى الوعي المطلوب بامتدادات الحروب الصليبية المعاصرة

المهم جداً أن نلاحظ ظروف وتاريخ نهاية الدولة السلجوقية في خراسان مما كان ممهداً للهجوم المغولي والتيموري على إيران والعراق معاً « أعلن سلاجقة العراق قيام دولة لهم عام ٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م في خراسان واتخذوا مدينة نيسابور قاعدة لهم ثم تفرق شمل السلاجقة واختلفوا في نهاية أمرهم فانهارت دولتهم أول ما انهارت في خراسان وكان سنجر مقيماً في هذه المنطقة وكان زعيم السلاجقة المعروف بالسلطان الأعظم ، ولكنه عجز عن مواجهة هجوم « الغز » عام ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م وانهزم أمامهم ٥٥١ هـ ١١٥٦ م . فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهباً مجحفاً وجعلوها قاعاً صفصفاً وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها والواقع أن فتنة « الغز » كانت ضربة قاسمة لظهر دولة السلاجقة في خراسان وقد وفاه سنجر بانهيارها بعد موته ببضع سنوات (مات سنة ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م) (١) كما كانت مقدمة لهجوم المغول سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م .

---

(١) حسنين نفس المصدر ـ ص ١٣٣ حتى ١٣٧ وابن الأثير سنوات ٤٢٩ ـ ٥٤٨ ـ ٥٥١ ـ ٥٥٢ .

من يستطيع هنا ، أن ينفي تأثير ما كان يدور من فعل صليبي في بلاد الشام والاندلس ومصر وإفريقيا على هذا العمق ؟ إلا إذا لم ير فيه عمقاً !!!

إن إيران ، ولكونها جزءاً من العالم الإسلامي ، لم تكن بمنأى عن أي حركة شاملة معادية للإسلام وبهذه الخلفيات وهذا الطموح وهذه المطامع (الصليبية) . . . وها هي الصهيونية أمامنا .. وهي ترجمة معاصرة أو امتداد معاصر للحركة الصليبية . . . تتحرك على نفس الحيز من الأرض وبنفس العمق والإمتداد (بعد حرب لبنان بدأ الكلام الصهيوني عن المجال الحيوي للتوسع الإسرائيلي الذي يمر بتركيا ليصل إفريقيا ويصل إلى أندونيسيا كما في بعض كلام أريل شارون) . . وقد وجدت إيران نفسها حيالها ، وجهاً لوجه ، مع تحد يربط ربطاً محكماً بين مسألة بقاء الثورة وبلوغها لأهدافها ـ على مستوى الداخل الإيراني ، وبين المواجهة الحضارية بكل ما تقتضيه ـ حتى العنف ـ ضد هذه الحركة التي تأخذ جزءاً من ديار المسلمين أرضية لها وقاعدة ارتكاز بينما مجالها الحيوي وطموحها يمتد ليتصل إلى أصقاع ديار المسلمين كافة . . .

إلى الأجزاء الأخرى من ديار المسلمين في إيران وباكستان وارتيريا والفيلبين ، مثالاً لا حصراً (١) لقد كنا جميعاً ضحايا التجزئة ، أو كان وعينا ضحية هذه التجزئة لأنه كان وعياً تجزيئياً ، انفصالياً في المحصلة ، وإذا ما ادعينا أننا لسنا كذلك . . . فماذا نكون إذن غير وعينا ؟ وهذا وعينا وعي تجزيئي حتى أذنيه وحتى آخر مدى للعصبيات التي تستيقظ عند أي نأمة أو حركة . . .

. . . أو ان وعينا كان مغايراً لإرادة وحدوية كان من المفروض أن تكون متينة في تكويننا وتحكم اتجاه الوعي ، ويبدو أنها لم تكن من القوة بحيث تحكم وإلا لغيرت اتجاهه .

والأمضُّ من ذلك كله هو أن مبررات هذا الوعي المغاير وتمويهاته قد انطلت علينا إلى حد كبير .

---

(١) -« واستطاعت روسيا أن تُدخل في حرس الشاه ضباطاً من الروس إلى جانب ضباط وجنود القوزاق . . . وفي ٣١ أغسطس آب ١٩١٧ عقد اتفاقية بين الروسيا وبريطانيا تناولت ثلاث مشكلات رئيسية هي فارس وأفغانستان والتبت وتم بمقتضاها تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ إحداها في الشمال لروسيا والأخرى في الجنوب لبريطانيا وبينهما منطقة وسطى تركت=

لقد أنطلت علينا شيعية الصفويين كما انطلت علينا سنية العثمانيين والواقع غير ذلك « وصادف أن عاصر السلطان سليماً عاهل آخر في فارس هو الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية وكان يحمل لواء الشيعة فلما اضطهد هذا أهل السنة جاراه السلطان سليم باضطهاده الشيعة فكان ذلك مما أدى إلى وقوع الحرب بين الدولتين ومما حمل سليماً أن يتحول عن أوروبا إلى آسيا ويسوق الأجناد إلى فارس ويحتل عاصمتها تبريز » [1] . . . فالبادىء هو اسماعيل وسليم جاراه ولا مانع أن يكون البادىء سليم واسماعيل هو المجاري دون أن يتبدل في جوهر الأمر شيء لأن السلطانين كانا يستجيبان لنوازع خارج السنة والشيعة ، خارج الإسلام . . . وهذا ليس

لفارس وبخصوص أفغانستان تعهدت الروسيا بأن لا تقيم معها علاقات سياسية إلا عن طريق بريطانيا . . ألخ » . (الدولة العثمانية - د . عبد العزيز محمد الشناوي - ج ٢ ص ١٠٣١ - ١٠٣٢) هذا قبل جمهورية مها باد » التي أنشأها الجيش الأحمر وبعد ثورة التنباك (زمن ناصر الدين شاه) آواخر القرن ١٩ - التي أتت عقب محاولة بريطانية لمصادرة إيران بالكامل .

(١) محمد جميل بيهم - العرب والترك - ١٣٧٦ - ١٩٥٧ ص ١٢٢ .

تكفيراً بالمعنى الإصطلاحي ، وإنما هـو وضعٌ للسلوك في سياقه المغاير للسياق الإسلامي - سياسياً - « ولقي المـذهب الشيعي استجابـة واسعة من رعـايا الـدولـة وبخاصة في شرقي الأناضـول واشتهر هؤلاء الشيعة باسم قزل باش أي أصحاب الـرؤوس الحمراء فهب السلطان العثمـاني سليم الأول لإستئصـال الخـطر الشيعي »(١) .

هكذا يقول الدكتور عبد العزيز الشناوي ويؤكـد على إرجاع العداء بين الـدولتين إلى « سبب عـام هو العداء الديني المذهبي المستحكم !!! بين أهل الشيعة والسنة ، فالدولة العثمانية كانت تعتبر نفسها المدافـع الأول عن المـذهب السني بينـما تعتبـر فـارس نفسهـا المـدافـع الأول عن المـذهب الشيعي » في الـواقـع أن السبب يعـود إلى العداء المستحكم بـين أهل السلطان وإلا فـاننا نتسـاءل عن الموقف العثمـاني من المماليـك السنـة الـذين يعيـد بعض المؤرخـين إلى انشغـال السلطان بايزيد بالحـروب معهم لمدة سنوات عديـدة

(٦) د . عبد العزيـز الشناوي - الـدولة العثمـانية - ج ١ ص ١٩ .

سبب انصرافه عن نجدة مسلمي الاندلس ونتساءل أيضا لماذا لم تخف حدة العداء الصفوي العثماني عندما أظهر أحد سلاطين الصفويين[1] ميلاً واضحاً نحو مذهب أهل السنة ، وأكثر من ذلك نسأل هل كان أهل الاندلس شيعة ـ وبنو الأحمر خاصة ـ وكان فرديناند وايزابيلا سنة ؟ يقول عبد الرحمن الكواكبي في « أم القرى » السلطان محمد الفاتح ـ وهو أفضل آل عثمان ـ قد قدم الملك على الدين فاتفق سراً مع فرديناند ملك الأراغون الإسبانيولي ثم مع زوجته إيزابيلا على تمكينها من إزالة ملك بني الأحمر آخر الدول العربية في الأندلس ، ورضي بالقتل العام والإكراه على التنصر بالإحراق وضياع خمسة عشر مليوناً من المسلمين بإعانتهما بإشغاله أساطيل إفريقيا عن نجدة المسلمين »

وحتى يمكن لأي سلطان أن يقدم الملك على الدين لا بد أن يقوم بعملية تمويه فيفصل المذهب عن

(١) هو الشاه اسماعيل الثاني ـ راجع روضات الجنات ـ باقر الموسوي الخونساري ـ ج ٢ ص ٣١٦ وما بعدها . . . وهناك كلام مهم للدكتور شريعتي في كتابه المشهور (تشيع صفوي وتشيع علوي) .

الدين ويبرزه كما لو كان مقدماً على الملك بينما يقوم الملك فاصلاً بين الدين والمذهب باتجاه هجومي على الدين واتجاه استغلالي على المذهب .

***

إذا ما كان المنصف يلاحظ اهتماماً واسعاً نسبياً ومعايشة حية من قبل الشعب المسلم في إيران قبل انتصار الثورة وبعده ، لقضية فلسطين كأحد ترشحات الحروب الصليبية وامتداداتها الحاضرة فإنه لا بد أن نلحظ في مقام التعليل أسباباً تقنية محددة يأتي في طليعتها التوسع الجماهيري والنخبوي معاً في التعاطي مع وسائل الإعلام . . وفي المثال الإيراني نرى تميزاً في هذا المجال نلاحظه في تأكيدات الإمام الخميني وفي كلامه منذ انتفاضة خرداد ـ حزيران ١٩٦٥ ـ وما قبلها إلى حد ما ، ربما كان سببه المباشر ، إضافة إلى السبب الإسلامي الأصلي ـ(المرجعية والإحساس بمسؤوليتها الإسلامية وامتداد الفعل الصهيوني إلى الساحة الإيرانية حيث يتهم الإمام إسرائيل بتدبير مذبحة المدرسة الفيضية في قم ـ حادثة خرداد ـ باعتبارها أبرز المتضررين من الوعي الديني

الإسلامي ، إضافة إلى حضور إسرائيل في القرار الإيراني وحركة النظام الإيراني البهلوي سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً ، كما كرر الإمام مراراً وأكد أن إسرائيل - الغدة السرطانية حسب تعبيره - لن تكتفي بالقدس) [1] . . مما يعني أنه في الحالة الإيرانية قد أصبحت المسألة واضحة أكثر وملموسة ، بينما لا نلمح هذا التميز في الوعي الإسلامي في مناطق أخرى من ديار المسلمين لعدم وضوح هذا الحضور الموضوعي ولعدم وجود شخصية كشخصية الإمام تمتاز بوعيها المبكر والمتقدم وتمتلك من القدرة الذهنية والسلوكية على التأثير ما يمكنها من تعميم وعيها وقناعاتها بالمسألة على أرضية مؤاتية وقابلة قد أُحسن استثمارها . ومن البين أن هذا الوعي المتميز من حيث الدرجة في النموذج الإيراني قد أصبح ذا خصائص نوعية بعدما انتصرت الثورة الإسلامية في إيران - ولم يكن ليصبح هكذا لو لم تكن له جذوره - وبرزت الوحدة شعاراً من شعاراتها - الثورة - دون

---

(١) راجع مجموع خطب الإمام في كتاب « دروس في الجهاد » وللكاتب (الإمام الخميني والقضية الفلسطينية) منشورات العروة الوثقى - بيروت - ١٩٨٠ .

تحققه تبقى الثورة مهددة ودون تحقق التحرير الشامل يبقى شعار الوحدة مهدداً ودون الوعي بالقضية ككل يبقى شعار التحرير صعباً ومصادراً .

ولعله من العلامات البارزة لهذا التطور النوعي ذلك الذي حصل في جنوب لبنان الذي جاء انتصار الثورة وموقف الإمام سبباً رئيساً ، دون أن يكون وحيداً ، في حدوثه مما اضطر القادة اليهود والصليبين عموماً على أن يؤكدوا باستمرار على شيعيته بالمعنى المذهبي الحصري والسياسي حتى لا يضعوا أنفسهم موضع الرعب من واقعه الإسلامي ودلالاته الإسلامية المستقبلية وحتى يعدوا أنفسهم للنفاذ من خلال هذا التوصيف إلى تمييع الحالة الإسلامية العامة والحد من تأثيرات الأمثولية اللبنانية من هنا إذن ما شهدناه قبل نجاح الثورة من متابعة لقضية الشرق الأوسط - في اصطلاحهم - قضية الإسلام في اصطلاحنا ، قد لا تكون هي المتابعة الشافية الوافية . ولكنها كانت جادة . وتأتي ترجمة عدد من الكتب والأبحاث في هذا المجال إلى اللغة الفارسية دليلاً على الحرص وعلامة فارقة على هذه المتابعة . كما يأتي دخول بعض قيادات الثورة السجون البهلوية

بسبب هـذه المتابعـة دليـلاً عـلى أهميتهـا إذا مـا كنـا مضـطرين أحيانـاً لقياس أهميـة أفعالنـا بـردود أفعـال الأعداء عليها ونـذكر عـلى سبيل المثـال(الشيخ أكبـر هـاشمي رفسنجـاني وتـرجمتـه لكتـاب « القضيـة الفلسطينية» لأكرم زعيتر وكتاب وضعه جـلال آل أحمد بـاذلاً جهداً غـير عادي لـلإفـلات من قبضـة القمـع الثقافي الشاهنشاهي) .

هـذا في حين أن قضيـة (أم) كقضيـة الحـروب الصليبيـة ، أصبحت بعيـدة عن التـداول الإعـلامي المبـاشر ، بعيدة عن مجـال الوعي التفصيـلي ، لكونها غير شاخصـة وغير مـاثلة للذهن والعيـان . . . كـان مفروضاً أن تكون حاضرة في وعي وذاكرة الخـاصة في الأقل ، لو كان هذا الوعي وعياً كونياً اسلامياً شمولياً ولم يكن محكـوماً بـآثار التجـزئـة . . وليست المسـافـة الـزمنية كـافية لتفسـير هـذا الإشكـال ونحن نـلاحظ الحضـور الساطـع للفترة بـين فجـر الـدعـوة وأواسط العصر العبـاسي بحيث يتم تداول مفـرداتها يـومياً ممـا يجعـل الـوعي بتفـاصيلهـا شـامـلاً لـدى العـامـة والخـاصة . . ونـلاحظ أن الوعي التفصيـلي للتاريـخ الإسلامي بدأ بالإنحسار كما ونوعاً متزامناً مع حدوث

التجزئة وقيام الدويلات في العصر العباسي .

إذن لا بد من تفسير ذلك بالتجزئة ، عندما نلاحظ أن الحروب الصليبية وبدون مبالغة ، إنما يتم تداولها في كلامنا ، المزجى والمكتوب ، وفعالياتنا البحثية بصورة أقل حرارة وإحاطة ، أو مساوية للحرب الفيتنامية أو حرب الفوكلاند !!!

ألا يعني هذا أننا ، سواء اعترفنا أم لم نعترف ، كابرنا أم لم نكابر ، اقتنعنا أم لم نقتنع ، لا ننطلق من رؤية شمولية إسلامية في تعاملنا مع كثير من قضايانا ؟ كيف يمكنني أن أفصل بين التاريخ العثماني في أسيا وإفريقيا وأوروبا من حيث الطموح الإسلامي وعمليات الأعداء وبين الحروب الصليبية ؟ (الوثائق والأحداث لا تساعد على الفصل) بين الحروب الصليبية وحروب الأندلس وفتح القسطنطينية ـ ١٤٥٣ م ـ والتاريخ العثماني العام ؟ وهنا تؤكد الوثائق بوضوح الربط بين بداية التفكير (الأوروبي ـ اليهودي) بفلسطين ، ومحاولات اليهود للإستيطان في سيناء مطلع القرن السادس عشر الميلادي / تاريخ تأسيس الدولة الصفوية ٩٠٥ ـ هـ ١٥٠١ م (عهد الشاه الصفوي اسماعيل الأول ـ وتاريخ توجه الدولة

العثمانية نحو المشرق ١٥١٢ ـ ١٥٢٤ م [١] ؟ وكيف يتأتى لي الوعي السليم بهذه العلاقة بين هذه المراحل والمحطات والقضايا دون وعي الحروب الصليبية أولاً ووعي سياقها الماضوي والمستقبلي واستهدافاتها المتأتية من حالة غربية تتمتع بقدر من الثبات في طبيعة النظام الغربي الذي لا يبدو أن ما طرأ عليه من تغييرات جذرية أو جزئية قد مس هذه الحالة التي تنفي الآخر ـ غير الغربي ـ وتضعه في نقطة الإستهداف الدائم ؟ ألا يبقى وعيي لمجريات التاريخ العثماني ومساره ومؤشراته وجذوره والهم الحضاري الضمني الثابت فيه . . . وعياً ناقصاً وأعمى ودون عمق أو طائل ؟

ثم كيف يتأتى لي أن أضع المرحلة الصفوية في سياقها التاريخي وتداخلاتها المنهجية مع التاريخ العثماني ـ هذه التداخلات المحكومة بالتنافي والتنابذ ـ لأرى من خلال ذلك عمق الحضور الصليبي في هذه المفاصل ؟ أعني ظواهر ما بدا وكأنه تناقض بين السلطتين

(١) ١٥١٤ م معركة تشالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين /١٥١٧ م معركة مرج دابق في بلاد الشام /١٥١٧ م معركة الريدانية ودخول سليم القاهرة .

العثمانية والصفوية والقاجارية فيما بعد ، ثم انحل فجأة في العهدين البهلوي والكمالي . . . ومن ثم الحروب والمعاهدات والمصالح التي كانت تقوم بين الدولتين كدولتين تابعتين - والغرب المشترك المتبوع الأساس بينهما خاصة روسيا وبريطانيا وفرنسا (إطلالة نابوليون على إيران بعد هزيمته في مصر وبلاد الشام)[1] . . وهل الوعي الإيراني الآن ، بهذه المسألة كاف ؟ أقول بأنه أفضل مما سبق ، ولكن هل هو في طريقه لأن يصبح مغايراً كما ونوعاً لما سبق كما هو المطلوب والمفروض ؟ علماً بأني على يقين بأن أتاتورك والبهلويين كانوا يعتمون على هذا التاريخ كما كان يقتضي دورهم التاريخي والتستر على كشف جذورهم والتطورات التي كانوا ثمرتها في كثير من الشواهد ، وهو على أي حال لا يعادل قيراطاً من الوعي

(١) راجع « حجة الاسلام والمسلمين أكبر هاشمي رفسنجاني - أميركبير ياقهرمان مبارزة با استعمار - خاصة الفصل الرابع من ص ١٣٥ إلى ١٤٩ - بالفارسية ط ١٩٨٤ م ١٤٠٤ هـ - انتشارات إسلامي » وهذا الكتاب يمثل نموذجاً يكاد يكون استثنائياً لما يمكن أن يسفر عنه توسيع اهتمامنا في حقل البحث التاريخي وتطبيق المنهج الوحدوي في تتبع هذا التاريخ من نتائج عملية طيبة .

الأوروبي لهذا التاريخ ، وبعض هذا الوعي الأوروبي أو جزء منه ، هو الجزء الأكثر تزويراً وتحريفاً ، هو الذي يشكل منبعاً يكاد يكون وحيداً ، للمعرفة العربية بهذه المسألة .

ألا يمكن القول - تنبيهاً لا حكماً - بأن معرفتنا للكثير من قضايانا ما زالت تتحكم بها - عمقاً وأفقاً - إرادة المستعمر إياه ؟! ذلك الذي كان وسيبقى حريصاً على تزييف المعرفة معرفتنا ، وصولاً إلى تأييد التجزئة وتعميم وتعميق وعيها الزائف ، لا الوعي بها ، بل وعيها بمعنى التشبع بقيمها وتثبيت هذه القيم ؟ إن الوعي الوحدوي الإسلامي هو وعي بالذات ، بالأمة ، وعندما تتجزأ الأمة ، جغرافيا وكياناً وحدوداً وسياسة وهموماً ، لا يعود هناك إلا إمكان استثنائي للوعي بها ، ويصبح الوعي العام هو وعي الجزء بالجزء وإذا ما طال هذا الوعي ملامح أو مستويات من كيان الجزء الآخر فإن هذا الامتداد يبقى محكوماً بمفاهيم التجزئة ومنظورها . . وهنا بالذات نبتت العصبيات الوطنية وحدثت الصراعات بين الأقاليم والأقطار والكيانات مرتاحة إلى حالة جماهيرية مشجعة ، لا وفاءً للأرض وللوطن ، بل

ضد الآخر ، الصديق اللدود أو العدو الحميم أو الأخ العدو ، مبطلاً كان أو محقاً ، ولا أدري هنا ما هو المائز بين الحق والباطل سوى العصبية ؟ ولا أدري ماإذا كان هناك حق او باطل فعلاً ؟ وطالما أن التجزئة هي الشر وهي الباطل الأصل والأم فكل ما يقوم على أساسها من قيم وصراعات باطل وهذا ما يضع العبء كاملاً على كاهلنا .

وإذا ما كان أتاتورك والبهلويون تجزيئيين حاولوا ضمان استمرارية التجزئة بربطها مباشرة بآليات الغرب الثقافية والسياسية والإقتصادية والسلوكية ، بعيداً عن الإسلام ، بل في مقابله ، فمن الطبيعي أن يعملوا على الحيلولة دون وعي إسلامي شمولي ، وقد كان واضحاً إلى أي مدى يمكن أن نحصل وعياً إيرانياً بعيداً عن ذلك الوعي الإسلامي ؟ إننا وقد حاولنا ذلك لم نحصل وعياً بقدر ما وضعنا أنفسنا في سياق وعي الآخرين ومتناوله وعرضة للإنطباع به تأكيداً للتبعية وترسيخاً للتجزئة .

هذه التساؤلات الإنكارية ضمناً كما هو واضح ، لا ترد على الحالة الإيرانية وحدها ، بل تعم الحالات

الإسلامية الأخرى الموزعة على خارطة التجزئة .

وليس كشفاً أن نقول بأن الوعي العربي للتاريخ الإيراني منذ العهد الصفوي[1] وحتى قيام الثورة الإسلامية هو وعي فقير ومتدن إن لم يكن معدوماً . وثقافات وشعر وتاريخ فهو زيف وباطل في باطل ، ومهما تكن أسبابه المباشرة واضحة فلن تبدل في طبيعته الباطلة . . . بل يمكن للحق المدعى من طرف منفصل ـ القطر أو الإقليم أو العنصر أو الكيان ـ أن يكون حقاً في حالة واحدة حالة ما إذا كان هذا الطرف في الصراع يحمل مشروعاً وحدوياً

---

(١) لعل أفضل وعي بهذه المسألة هو الذي كونته مجموعة تزيد على السبعين من عماد الشيعة العامليين الذين فروا من ظلم الجزار بداية ومما تبعه من مظالم على مدى قرنين (١٠ و١١ هجري) إلى إيران أبان تشكل السلطة الصفوية وبترغيب منها (كان من أبرزهم السيد صالح الموسوي جد آل الصدر ، والشيخ حسين بن عبد الصمد وولده الشيخ البهائي والشيخ الحر العاملي) وقد بلغوا مراتب عليا سياسية وعلمية ثم اكتشفوا أن السلطة الصفوية إنما قربتهم لتتغطى بهم وتكيد للإسلام . وقد ظهر ذلك في ردود أفعالهم عندما تخلى الكثيرمنهم عن مناصبهم العالية وفروا من إيران كالسيد صالح والشيخ حسين والبهائي الذي اضطر للعودة بعد فرار دام ٣٠ سنة . . . وفي مراراتهم التي تحدثوا عنها شعراً ونثراً .

نابعاً من عقيدة التوحيد .

وبالتالي فإن إطلاعاً أولياً على تأريخنا للفترة الصفوية وما بعدها إلى أواسط القرن الميلادي الحالي يعطينا انطباعين :

الأول : هو أن هناك اهتماماً بالغاً بدور الغرب المعادي على اختلاف منازعه فيما يعود لهذه الفترة على الساحة الإيرانية ، وإن لم يكن الإهتمام قد وصل إلى الحد المطلوب من ربط هذه الدور بامتداداته ونهاياته المنطقية على الساحة الإسلامية . . . وهذا كان من شأنه أن يكون قاتلاً لولا يقظة المهتم والمتابع المسلم الذي يأبى ، بتأثير من مخزونه التاريخي والعقيدي ، أن يفصل بين التعبيرات المختلفة والمتنوعة للمسألة الواحدة ، بل يربط ، ليبرهن على فرضية ينطلق منها دائماً ، تقول بوحدة السياق والمسار والدافع والغاية لدى الآخر ـ الغرب ـ مهما اختلفت أساليبه وتلونت بتفاصيل الواقع الخاص ، هنا أو هناك . . . والإنطباع الثاني يترشح من الإنطباع الأول ويكمله

الثاني : وهو أن هناك رؤية من مسافة بعيدة ، وعفوية وثانوية إلى حد بعيد ، لحركة الإستعمار على

الجانب الآخر - العثماني أولاً - . . . أليست إذن التجزئة وثقافة التجزئة هي التي سولت لنا أن نرى أن هناك تاريخين ومحورين منفصلين لحركة الاستعمار وأن هناك بالتالي استعمارين وأن أي طرف يكون مشغولاً بالمواجهة مع أحدهما ليس مضطراً للربط بينهما أو بين مواجهة أي منهما مع مواجهة الآخر !!!

ومنذ البداية . منذ فجر الدعوة . . . واجهت دعوة التوحيد ، بعدما رأى فيها الأعداء حركة واحدة وحركة وحدة ، واجهت جهداً محموماً من أجل التجزئة ودائماً كانت هناك حالات من التجزئة كافية أو بارزة ، ولكنها لم تستطع أن تهيمن على مسار الحركة أو توجه حركة الفكر والسلوك ، بل ظلت الوحدة هي الغالبة والمهيمنة في المحصلة . . . من هنا كان ابن خلدون يؤرخ للمشرق - من المغرب - بنفس التوسع والعمق والحرارة التي يؤرخ بها للمغرب ، كما كان ابن الأثير قبله بحوالي قرنين يؤرخ للمغرب - في المشرق - بنفس العمق والحرارة والتوسع التي يؤرخ بها للمشرق وكانت الحروب الصليبية التي قامت بضربتها التجريبية الأولى في المغرب - في طليطلة في الأندلس عام ٤٧٨ هـ لتطال من بعد سواحل إفريقية (تونس) من

صقلية - ثم توجهت نحو المشرق - بلاد الشام - لتصل إلى الهدف المركزي - القدس - ٤٩٢ هـ - ومن ثم تضغط باتجاه مصر لتصل بين جناحي الأمة - المغرب والمشرق - عدواناً واستيطاناً في حركة حلزونية . . . هذه الحرب كانت هماً من هموم هذين المؤرخين وغيرهما من المؤرخين والعلماء والمفكرين مع اختلاف في بعض التفاصيل أو عليها واتفاق كامل في المنهج والرؤية سوى قلة قليلة(١) مما يعني بالتالي أن العقيدة والإنتماء ووحدة الهم والثقافة قد غلبت على دواعي التجزئة وتعبيراتها ألغت أو حدت من فرصة امتدادها إلى عقول الأسوياء من مفكري الأمة. إذن هناك معضل انفصالي ، يأتي من حالة انفصالية قد نختلف على مدى عمقها واتساعها ولكننا نعيشها ونعانيها وهي تشكل بؤرة جرثومية لذلك المعضل الذي فوت علينا الكثير من فرص النصر الوحدوي ، أي النصر

---

(١) توفي، الإمام أبو حامد الغزالي عام ٥٠٥ هـ أي بعد ١٣ سنة من سقوط القدس في أيدي الصليبيين إضافة إلى غيرها من الحواضر الإسلامية وارتكبت فيها مجازر بشعة ومع ذلك لم يؤثر ،عن الغزالي أنه قال كلمة واحدة وكأن شيئاً لم يكن . وهكذا الأمر بالنسبة إلى قطبين صوفيين آخرين عايشا الحروب الصليبية هما ابن الفارض وابن عربي !!!

المشروط بالوحدة ولا يتم إلا على قاعدتها لتعود نتائجه فتصب في مزيد من الوحدة . . . بينما كان ذلك لدى الحاكم ، أو حكام الجور عموماً ، من صفويين وعثمانيين من الأواخر ، ومن أتى على أعقابهم ، منهجاً مقصوداً ومتفاهماً عليه ضمنا أو صراحة مع المستعمر .

وإذا كان لا بد من الإستثناء فإننا نستثني بمزيد من الحذر والتحفظ بعض الأوائل من سلاطين العثمانيين وعبد الحميد من الأواخر[1] على أننا نرى في هؤلاء الأوائل ميلاً ظاهراً وظاهرياً نحو الوحدة والعمل الوحدوي تأتي الممارسات والسلوك على الأرض وفي منهج الحكم لتغتاله وتمنع تأثيره وتتيح للتجزئة والتجزيئيين مجالاً لفتح منافذ في جسم

(١) يقول الدكتور الشناوي بأن المؤرخين يتفقون رأياً على تقسيم سلاطين الدولة العثمانية إلى مجموعتين : سلاطين الفترة الأولى وهم عشرة أولهم عثمان الأول وآخرهم سليمان الأول - المشرع - وقد حكموا فترة تقرب من ٢٦٧ سنة (١٢٩٩ - ١٥٦٦ م) والمجموعة الثانية عددهم ستة وعشرون أولهم سليم الثاني ابن سليمان وآخرهم محمد السادس وقد حكموا فترة تقرب من ٣٥٧ سنة (١٥٦٦ - ١٩٢٢ م) راجع : محمد عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية - ج ١ ص ٣٤٥ -

الأمة على إرادة الأعداء وتوقعاتهم . . . من هنا يمكننا أن نرى في بروز حركة تركيا الفتاة أو الإتحاد والترقي وما استثارته وكان مخططاً لها أن تستثيره من عنصريات لدى شعوب السلطنة الأخرى ، يمكننا أن نرى في ذلك لا تأسيساً لاتجاه ومسار بل تتويجاً وتعبيراً مؤسسياً عن واقع متجذر وذي تاريخ ، وعندما وصل الدور إلى عبد الحميد استيقظ الرجل على الوحدة كمخرج وحيد من حالة الحصار التي عاشها بما يعني ويمثل . . وقرر أن يتمرد على تراث تراكم منذ أواسط القرن السادس عشر الميلادي متواصلاً مع بدايات فيما قبله ، ولكن عبد الحميد كان مثقلاً بالعبء الباهظ ، محدود الإمكانية موضوعياً وذاتياً وربما محدود الإرادة أيضاً . . من هنا كان التساؤل عن مدى جديته في توجهه الوحدوي وعن نيته في التغيير والتصحيح الذي لم يكن يراه مجدياً إلا إذا وفر له شرطاً صعباً منافياً له في الأساس وهو الحفاظ على سلطته وسلطة أسرته مع تنظيم فوضى هذه السلطة دون ضبطها أو القضاء عليها[١] .

---

(١) راجع رد عبد الحميد على السيد جمال الدين الافغاني عندما عرض عليه مشروعه التنظيمي (خاطرات جمال الدين =

إن إلمامي البسيط باللغة الفارسية ـ وأنا أناقش هنا المظهر أو التجلي أو التعبير الإيراني للمعضل الإسلامي كشاهد ونموذج ـ لا يؤهلني لإصدار أحكام باتة ولكنه يساعدني على تكوين فكرة أولية غير ظالمة . . . قد يراها البعض ظالمة .. ومعايشتي لبعض مستويات حركة الفكر الراهنة على الساحة الإسلامية الإيرانية ربما شجعتني كذلك. كما أن معرفتي باللغة العربية واهتمامي بهذه المسائل واطلاعي على حركة الفكر العربي في هذه المجالات في حدود تزيد على حدود العادة وتقل عن حدود التخصص ، يخولني أن أحكم غير متردد إلا بقدر ما تقتضي الدقة والإنصاف مما لا يبدل في أصل الحكم . . . ولعلنا متفقون على أننا ملزمون بالوحدة وبإرادة الوحدة مسكونون بهاجسها ملتزمون بها .. وأزمتنا أزمة البحث الوحدوي والوعي الوحدوي واحدة ، تصب نتائجها في المجرى المعيق للوحدة .

إن الأبحاث والمؤلفات العربية وأعمال التحقيق

=الافغاني محمد باشا المخزومي) أيضاً هاني فحص ـ مجلة الفجر العدد ٤ السنة الأولى ـ قم إيران (السيد والسلطان) .

التي تتناول الحروب الصليبية تتوسع وتزداد باطراد ملحوظ يساوق إطراد الإحساس بضرورة وضع حاضرنا في سياقه التاريخي الذي أصبح من الواضح أن هذه الحروب تشكل ركيزته . . . بينما لا نجد ما يناسب هذه الأعمال والأبحاث والمؤلفات أو ما يوازيها أو يقل عنها قليلاً - نوعاً وكماً - في اللغة الفارسية . أو لعل الوضع في الأردية وغيرها من لغات شعوب الأمة الإسلامية ليس أفضل إن لم يكن أسوأ)(١٥)

(هناك جهد مشكور ومتميز للمرحوم الدكتور حسن

---

(١٥) هناك جهود كثيرة محمودة تكاثفت منذ أوائل الستينات أذكر منها مثلاً لا حصراً ١ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور (الحركة الصليبية ، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى) ٢ - د . جوزيف نسيم سوسة (العدوان الصليبي على مصر والعرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية والعدوان الصليبي على بلاد الشام والوحدة وحركة اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي) ٣ - د . حسين مؤنس (نور الدين محمود) -٤ - محمد عبد الحي شعبان (الدولة العباسية - الفاطميون) -٥ - أمين سعيد (حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية) -٦ - د . محمد جمال الدين سرور (دولة الظاهر بيبرس في مصر) -٧ - د . زكي النقاش (العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والإفرنج في الحروب الصليبية) - ٨ - محمد العروسي المطوي (الحروب الصليبية في المشرق والمغرب) ٩ -د . أسامة زكي زيد (الصليبيون - ١٠ -د . حسن =

آيت حـــول الحروب الصليبيـة ولكنه مترجم إضافـة إلى بعض ترجمات أخرى عن الفرنسية والإنجليزية) .

أما إذا التفتنا ناحية المصادر الأساسية ، وهذا هو الأهم ، لم نجـد في مجـال الإهتمـام والتـداول ـ هنـا الاهتمام يقتضي التداول والتداول يثير الإهتمام ان لم يدل عليها وهما يفترضان أن يكون هناك جهد مناسب في إخراج كنوز المخطوطات الإيرانية التي يفترض أنها كثيرة وجيدة ـ . . . لا نجـد إذن سوى كتب التـاريخ العـام غـير المتخصص ، أي الـذي يـدرج الحـــروب الصليبية ضمن التاريخ الإسلامي العام(منذ فجر الدعوة أو مـا قبلها إلى سنـة انتهـاء التـأليف) حتى لـو كـان معاصراً للحـروب الصليبية (كـالكامـل لابن الأثير ـ الـذي يـذكـر لـه كتـاب مختص عن تـاريـخ الـدولـة الأتابكية ـ المتوفى ٦٣٠ هـ ١٢٣ م ـ والبداية والنهاية لابن كثـير المتـوفى ٧٤٢ هـ ١٣٧٣ م . وتـاريـخ ابن

=حبشي (الحرب الصليبية الأولى) ـ ومن الترجمات المهمة (ستيفن رنسيمان ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة السيد الباز العريني) ، وفصول من قصة الحضارة (ويل ديورانت) ج ١٥ ترجمة زكي نجيب محمود .

خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ ١٤٠٦ م . والمختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء المتوفى ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩ هـ ١٦٧٩ م . . . حتى إذا وصل الأمر إلى كتب التاريخ العام القريبة من الإختصاص أو الكتب المختصة لم نعد نجد شيئاً ، لا بالعربية ولا بالفارسية . . . أو وجدنا القليل النادر الذي لا يغني . . وهذا الإستدراك لا يقوم على علم مني وإنما هو احتياط من ظلم(١) .

---

(١) ، من الأمثلة في هذا المجال ١ ـ ذيل تاريخ دمشق لابن العلانسي المتوفى ٥٥٥هـ ١١٦٠ م . ٢ ـ الإعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م ٣ ـ العبر في أخبار من غبر للذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ ١٣٦٨ م . ٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي المتوفى ٨٤٥ هـ ١٤٤٢ م ٥ ـ الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين لابن دقمان المتوفى ٨٠٩ هـ ١٤٠٧ م . ٦ ـ كنز الدرر وجامع الغرر ـ والتيجان وغرر تواريخ الزمان لابن أيبك المتوفى ٧٠٤ هـ ١٠٣٢م . ٧ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي او تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني المتوفى ٥٩٧ هـ ـ ١٢٠١ م . ـ٨ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ليوسف بن شداد (بهاء الدين الشافعي) المتوفى ٦٣٢ هـ . ١٢٣٢ م . ٩ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي المتوفي ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٧ م . ١٠ ـ الدر الثمين في سيرة نور الدين لابن فاضي شهبة المتوفي ٨٧٤ هـ ١٤٦٩٥ م .

المصادر

قد تكون المكتبات العامة ـ والحديث هنا عن إيران ـ لا تخلو من بعض هذه المصادر أو جلها ، لا أدري ، ولكن المكتبات العامة لا تشكل دليلاً إلا للخاصة ، بل خاصة الخاصة فيما يعود إلى موضوعات كهذه ، ولا يقصدها لينقب فيها سوى المتخصصين وكم عددهم ؟ ثم ان توفر المصادر بين أيدي القراء يساعد ويدل على ثقافة عامة حول الموضوع ، تفيد في توجيه حركة الأمة نحو بناء كيانها وتاريخها ، ويفتح الباب أمام إمكانيات بحث وتحقيق لدى غير المتخصصين ممن لا مانع أن يكون انتاجهم أكثر جودة وإبداعاً أو مساوياً لإنتاج غيرهم . . . إلى ذلك فإن عدم توفر المصادر الأساسية لأي موضوع أو لموضوع كالحروب الصليبية بالذات ، والتي كانت موضع عناية خاصة من قبل الغرب نظراً لأنها في الأصل كانت

شأناً غربياً . . وهذا الشأن ما زال قائماً على نفس القاعدة القديمة . . . عدم توفر المصادر إذن ربما ألجأ الباحث العادي والراغب في المتابعة على الرجوع إلى المصادر الغربية أو التي تنقل عنها دون نقد أو اعتراض ، على ما في ذلك من مخاطر فكرية ومنهجية وأخلاقية أيضاً . .ونحن نرى بأعيننا إلى أي مدى أصبح أبناؤنا الذين رباهم أساتذة الدراسات الشرقية والذين هم عادة من مستشاري أجهزة المخابرات ـ دومينيك شيفاليه ـ ارناندیز ـ كلود كاهن ـ جاك بيرك ـ مكسيم رودنسون ـ ـ أركون ـ مرجليوث ـ جب ـ برنارد لويس ـ فلهاوزن ـ جولدزهير . . . الخ .

أعيد ،نرى بأم أعيننا ، إلى أي مدى أصبح أبناؤنا هؤلاء متغربين ناقلين بدهشة وإحساس مفرط بالدونية ، مقلدين لأساتذتهم ـ إلا من رحم ربك ، واستيقظ على الخدعة ـ مسهمين في تفتيت شخصية المثقف المسلم وتوزعه وانفصاله عن أمته .

إنه للمفت أن تكون حركة الترجمة من اللغات الأوروبية المختلفة إلى اللغة الفارسية وفي شتى الموضوعات حركة نشطة لا تقف عند عقبة لغوية أياً كانت . . . بينما نلاحظ أن الترجمة من العربية إلى

الفارسية إذا ما بقيت في حدود اللغة الكلاسيكية لم تتعثر حتى إذا ما وصل الأمر إلى المؤلفات الحديثة تبين لنا ، إلا في القليل القليل ، أن ما تعلمناه من اللغة العربية في إيران وغيرها من البلدان الإسلامية . لا يكفي لإقامة حالة من التواصل الثقافي الضروري يفترض أن تكون العربية جسرها وفي حين يجعل دستور الجمهورية من تعليم وتعلم اللغة العربية مادة إلزامية غير مرهونة بإرادة مؤسسة تربوية أو هيئة تشريعية أو هيئة تنفيذية ، فإن ذلك يعتبر ارتقاءً بالتحسس بالمسؤولية الثقافية يحتاج إلى حركة فعل وتجديد توازيه أهمية في نشر اللغة العربية وتبادل المعارف الأساسية التي ليست محصورة في علم الفقه وأصوله . . . ومن جهة أخرى نلاحظ أن القارىء العربي ينتظر ان يتفضل الكتاب الغربي ـ الجاسوس في الأعم الأغلب ـ ليكتب عن تاريخ إيران أو غيرها ولينقل متغرب مقلد آخر ما كتب إلى اللغة العربية فيستفيد منها القارىء العربي . . وتصبح معلوماته عن إيران مجموعة تقارير وتحاليل موجهة ومصفاة في أجهزة المخابرات .

وإذا لاحظنا عدم جاذبية الفارسية بالنسبة للعربي

على العموم وأن من يتعلمون هذه اللغـة ، لهواية أو رغبة أو ضرورة ، لن يبلغوا ، كما وكيفاً ، حداً يحل المشكلة ، فإن هذه المهمة ، مهمة تعريف المسلمين ، بالتاريخ الإيراني ، تبقى مهمة العالم والمثقف الإيـراني المسلم الذي يفترض أن يكون علمه وثقافته مبنية على اللغة العربية .

وإذا لاحظنا ما ترجم إلى العربية من الأساسيات الفـارسيـة في حقـول شتى ، لا الحقـل التـاريخي وحسب ، وبعد مضي ست سنوات من عمر الثورة ، وجدناه لا يتجـاوز أبعاضـاً يسيرة من بعض المشـاهير الإيـرانيـين . . . بعض الشهيـد مـطهـري وبعض الـدكتور شـريعتي وبعض هذا الـبـعض من شـريعتي نقل عن الإنكليزيـة . . . إضافـة إلى أبعاض أخـرى من آخرين ، لا غير ، وهذا القدر لا يؤسس تـواصلاً نـاجعـاً . . إذا مـا كـان لدينا تصـور دقيق لحجم التواصل القـديم ، وكانت صـورته مـا تزال مـاثلة في أذهـاننـا ، تلك الصـورة التي انحـدرنـا نمـطيـاً عن مستواها وسعتها وشمولها وعمقها .

من خـلال بحث لي حول (الحـروب الصليبية -

الوحدة والتجزئة) نشر في العدد الثامن عشر من مجلة الطليعة الإسلامية ، لندن ـ انتهيت إلى فكرة عامة هي محورية الوحدة والتجزئة في تاريخنا العقيدي والفلسفي والسياسي بدءاً من فجر دعوة التوحيد حتى هبوط ظلام التجزئة وشمولها لأرجاء العالم الإسلامي ومطاولتها لأعماق الشخصية الإسلامية ، إلى نهوض فكرة الوحدة الآن واستقطابها للهم والجهد الإسلامي ويقظة دعاة التجزئة على هذا النهوض واستنفارهم كل قواهم من أجل إحباط الآمال الوحدوية، وذلك ما يستدعي يقظة وحذراً من قبلنا ، لا ينافيه الأمل بالنصر وهو كذلك لا ينفي ذلك الأمل .. بل ان الأمل الأوطد هو الأحوج إلى الحيطة والحذر .

وإذا ما كانت الوحدة طموحاً ووضوحاً وتحققاً لا تنفصل عما يدور على الأرض من جهاد وكانت التجزئة بروزاً وتحققاً لا تنفصل عما يدور على الأرض أيضاً من عمل مضاد من قبل الأعداء وإذا كان للوحدة تاريخها وللتجزئة تاريخها .. وكان هذان التاريخان في صراع دائم فإننا كموحدين وحدويين نتعامل مع الوحدة كعقيدة وكضرورة حياة وبقاء ملزمون بقراءة هذا التاريخ دون اجتزاء لنكشف مسار

الوحدة ومسار التجزئة . وإلا فإننا لا يمكن أن نحقق ما نرجو إذا ما اجتزأنا وجزأنا وفصلنا ، لأن الإجتزاء يعني حصر الوعي بالمسألة في حدود تاريخية ضيقة ، وهو بأي حال لن يكون وعياً رسالياً ولا وعياً تاريخياً بناءً . . . إنه وعي خاص يصب في التجزئة .

إن ما يريده الأعداء في معركتهم ضدنا هو أن لا نملك هذا الوعي التاريخي الشمرلي حدثياً ولا منهجياً حتى لا نكون في العمق ونبقى على السطح في مواجهتنا معهم . . . يريدون أن يبقونا في حقل التجزئة الموحل حتى لا نتحرك بالإتجاه الصحيح .

حزيران ١٩٨٥

٩ ـ الحالة الاسلامية : اهتمامات نقدية

بسم الله الرحمن الرحيم

هـل نحن بصـدد الاحتفـاء بـالامـام المهـدي (عج) ؟ انه التباس محتمل ، قد يخالط وعي البعض او يـظهر في سلوكـه او يدخـل في وهمه . ولا بـد من جلائه ، خـاصة واننـا بين يـدي امام انيط بـه تحقيق حلم كوني ، حلم العدل الذي يشكل الحلم البشري مستوى من مستوياته وحسب ، وقصاراه ان ينتظم في سياقه الشمولي . .

ما معنى ان تحتفي الطبيعـة عطاء بـالامام ؟ فيعم الخصب كما في المرويات ؟ وان يغير الفلك من دورتـه والمجرة من نظامها ؟

* ألقيت في ذكرى مولد الإمام المهدي (عجل الله فرجه) في مدينة النبطية ١٥ شعبان ١٤٠٦ هـ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم : «لو لم يبقَ الا يـوم واحد من الـدنيا لبعث الله رجـلا من اهل بيتي يملأها عدلا كما ملئت جورا » (اخرجه ابـو داود في سننه) . . وذكر صـاحب (عقـد الـدر) عن حذيفة بن اليمـان قال : خـطبنا رسـول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم) وكـان من جملة خطابَـه قولـه :« لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا من ولدي . . »الحديث .

وفي الغيبـة للطوسي والنعماني وارشـاد المفيـد من عـلامات ظهـوره (طلوع الشمس من مغـربهـا) . . (عن ابي سعيـد الخدري رضي الله عنـه عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال : « يكون من امتي المهـدي تتنعم أمتي في زمـانه نعيـما لم يتنعمـوا مثله قط ، البـر والفاجر يـرسل الله السماء عليهم مدرارا ولا تـدخـر الأرض شيئـا من نباتها». واذا مـا كـانت الامـامـة ، اساسا مشـروع العدل ، او حـاملة المشروع السـاعية اليه على قاعدة التوحيد والوحدة . فان حضور المهدي هو استمرار للوعد وتأكيد على امكـانه ، وظهـوره هو اعـلان الـوقـوع والتـطابق بـين الحلم وحـركتـه على الأرض وبـين الناس . . فـالمهدي شخصـا وفعلا هـو

ذروة أشواق الامامـة الى تحقيق ذاتها في العيـان ، وفي لحظة ظهوره يكـون قد انـدماح الابيض الشفاف بـين التـاريخي والمقدس ، يكـون التاريـخ قد بلغ قـداسته وتكون القداسة قد صارت شهودا وعيانا .

من كـان ساميـا سامقـا الى هذا المدى ، يصبح الاحتفـاء بـه انتقـاصـا من مكـانتـه ، ونـزولا بـه الى تطلبات حالة مرضية لدى المحتفي ، تماما كما يصبح الانشغال بالـرؤية البصـرية استبعاداً للاستحضـار في اليقين والفعل .

يفتـرض ان يكون لقـاؤنا المـوسمي بالمهـدي ثبتا لسعينا السنوي الى تمثل حضوره وانتـظاره ، ومدخـلا نقديا لشواهد الخلل في هـذا السعي ، مدخـل نقدي يقضي الى تصور عملي لكيفية سد الخلل او تلافيه من قابل : واذا ما كانت الامامة تكليفا ، وليست تشريفا وكان المكلف هو الله فـان التكليف يترتب عـلى اهلية المكلف الكـاملة للنهوض بـه . بينما يمكن ، في حـال التشريف ، ان يجبر النقص النسبي في الاهليـة بارادة المشـرف واختياره ، ويكـون التشريف نسبيـا مـطابقـا لنسبة الاهلية ذاتها . ومن كان تكليفـه بهذا المستـوى

من الثقـل فهو غني عن الاحتفـاء لأن التكليف نفسـه هو تعيين الهي للجدارة والمكانة ، وهو كاف كامـل ، رباني ، ومقدس وليس بحـاجة الى الاحتفـاء البشري ليكمل نقصا ليس فيه .

نحن الـذين نثبت نزوعنـا وشوقنـا وقدرتنـا عـلى التكامل والتسـامي عندمـا نلاقي الامـام على مفـارق عمـره الشـريف وعمــرنـا . . اولا نثبت . . الشــأن شأننا . . والاحتفاء هو احتفاء بنا .

وان تحوله الى احتفال يعني ان يرتفـع صوتنـا الى ابعـد من مـداه المجــدي ، أو نغمض عينـا ونفتــح اخـرى ، فنرى الخضـرة المياسـة ولا نـرى الجـراد او احتمـالات المحل . . نـرى الخيرات من دم وتبـاشـير مجـد ولا نـرى الشر الـذي يـرصـدهـا ويتـربص بهـا الــدوائـر . . نــرى العـافيــة ولا نـرى احتمــالات المرض . . نذهب في الـطمأنينـة ولا نرى ان دواعيهـا تلزمنا بالحيـطة والحذر !!! هـل هناك طمـأنينة بـدون حذر ؟

لن اجتـرىء ، او لن يـدخـل في وهمي اني يمكن ان انـظر بعيني الامـام (عــج) الى واقعنـا لأقــومـه

مفردات ونهجا فأؤمن على شيء منه واتحفظ على شيء وارفض شيئاً . . بل انـظر بعيني نفسي ، واعـد ان اقرب عيني ، ما استطعت ، من مظان الحقيقة والحق الذي يصوب الامام عينيه اليه ، ولي كواحد من أهل الـولاء والاقتداء ، كمـدعى وطموح في الاقـل ، مـا يتيح لي ان ادعي استهداء بنهج الامامة فيما ارفض واقبل .

ولعلنا متفقون على ان مبرر النقد ، نقد الاخر او نقد الذات هو القناعة الضمنية لـدى الناقـد بجدارة الاخـر او الـذات ، بحيث يمسي النقـد استكشـافـا لطريق الكمال وحرصا عـلى الايجابي المتحقق وتنميتـه وتـزكيته وعنـدما يكـون لدى الاخـر باطـل مطلق او باطل نسبي غالب فانك ترفضـه رفضا وتسقـطه لتبدأ من نقـطة مغايـرة ، وعندمـا تكون الـذات ساقـطة ، راسخة في الباطل فانك تلعنها . . .

اذن فعنـدمـا اقـدم نقـدا بـين يـدي الامـام ، لواقعنا ، اكون ضمنا قـد اقررت بـان في هذا الـواقع غلبـة للايجاب على السلب . واني لارد الايجـاب الى التطابق مـع المنهـج واعلل السلب . بـالبعـد عنـه ، واقـول : لا تكفي سـلامـة المنهـج . . ودائـما كـان

الاسلام سليما . . ولكن مفردات الفعل ومفردات الفكر السالبة ، من شأنها اذا لم تحاكم على ضوء المنهج وتقمع به ، ان تتراكم لتاكل الايجاب وتغلب . وعندئذ لا تعود الايجابيات كافية في المخاطرة ، تكون فرصة المفاخرة قد انقضت لنصبح الايجابيات حجة علينا وربما ، اذا اصبح الباطل طاغيا ، اصبحت مأخذا ، وقد يطغى الباطل عندما يكون الحق في ذروة هيمنته ، ولا بد ان يكون الحق يقظا على سلامة مساره ونظافة غايته . . ليس النصر وحده مقياسا للحق . وعندما يستحكم الباطل يصبح القتال ضد اسرائيل ارتكابا واقترافا ، ويصبح التحرير عدوانا والرد على الارهاب ارهابا .

هناك حديث يدور عن حالة اسلامية على الساحة اللبنانية ، ان هذا الحديث دليل على وجود الحالة ، التي لم تكن ، او كانت حالة جنينية ، على ان جنينية الحالة الاسلامية في أي جزء من ديار المسلمين هي حالة دائمة بسبب الاسلام ، وانما نقلها من الرحم الى الفضاء الخارجي ، الى الشخوص ، هو شأن المسلمين وعلامتهم ، فعلامة المسلمين في لبنان انهم ارتقوا بالحالة الاسلامية الى درجة عالية من

البروز والعينية ، قد نختلف فيما بيننا ، او مع الاخرين ، على سعة هذه الحالة وعمقها ومؤشرات تطورها ونواقصها ونهاياتها المنطقية ، ولكنها موجودة باتفاق الجميع ، حتى الذين يسمونها ارهابا .

هذه الحالة ، لها اصل هو الاسلام ، وفرع هو الدم ، وناظم بين الاصل والفرع هو الفكر ، ولها امثولة هي الثورة الاسلامية ولها مسار وظيفي هو التمهيد لدولة المهدي ، ولها تاريخ هو تاريخ الدعوة ، ومحطات منها كربلاء . . ولها تاريخ قريب هو القتال ضد اليهود والمتهودين . ولها حاضر هو مجموع ما انجز ومجمل ما تبقى ، وكلاهما ، المنجز والمتبقي ، يحكمانها بضرورة التواصل وإلا انتكست ، والتواصل لا يمكن ان يتحقق الا على خارطة نقدية تقيس الحاضر على الماضي ، وتفصل الحاضر على المستقبل ، بلا زيادة ولا استعجال لان في ذلك تبذيرا وتبديدا ، وبلا نقصان لان في ذلك تقصيرا يورث قصورا واحباطا .

والنقد هو حالة بين المديح والتجريح ، بين الثناء والهجاء ، المديح يخدر الحالة ، يذهب بوعيها الى

حيث تلقفه الريح او يأكله الذئب ، والهجاء نكران ومكابرة واستعلاء على الدم والعقيدة والامة والتاريخ . . وكان النقد بينهما قواما .

واضح اني لا اكاد اهم حتى احجم . . ذلك اني لست على يقين كامل بان النقد الذي قد يبلغ ذروة صدقه في قسوته ، لن يترتب عليه انتقاص من سلامة النية ، وانها لمعضلة ان نرى اوراقنا جميعا في سلة واحدة ثم نخرج ورقة من هنا او ورقة من هناك لانها ليست على القياس او لأن اللون فيها ليس فاقعا تماما .

على ان الحالة الاسلامية في لبنان ما تزال في سيرورة ، ما تزال في مستواها السياسي حالة جدلية . والجدل ليس جدلا على الهدف العام والنهائي والاصلي ، بل الجدل على طريقة الوصول ، على تاريخ الوصول وتعرجات الطريق ، على مقدار السرعة المناسبة خاصة بين الحفائر والخنادق والمنعطفات الحادة . . انه جدل على المفردات وليس جدلا على الشعار ، بل على قاعدة الشعار وزمانه وتوقيته وترتيبه وتحريكه على الارض وفي الوعي

العام .

ونحن مؤمنون بانه من اجل الوصول لا بد من استقطاب كل الامكانيات المعنية بالوصول ، ولا يمكن استقطابها ، الا من خلال الجدل المفتوح واليومي ، جدل الكلام وجدل الفكر وجدل العمل . . ثم يأتي وقت الفرز ، دفعة واحدة او تدريجا ، في زمن او غيره ، ولكنه في زمنه ، الا ان يسقط الساقطون على الدرب ، هذا ما حصل من فجر الدعوة الاسلامية حتى الفتح وما حصل من عام ١٩٦٣ ان لم نقل من عام ١٩٥١ في ايران حتى سقوط بني صدر .

اننا ملزمون باستيعاب مجمل مساهمات علمائنا ومجاهدينا على مدى قرون مضت ، غير غافلين عن الهنات التي اعترت مسيرتهم ، على ان نضع هذه الهنات في مكانها التاريخي الصحيح وان نراها متركبة على ظروفها ، اخذين في الاعتبار مدى الحرية السياسية التي اتاحتها لنا ظروفنا الحاضرة حتى استطعنا ان نجاهر بفكرنا ومشروعنا ، ولنذكر باستمرار ان عددا من ائمة اهل البيت (ع) كانوا

حذرين من اظهار امرهم .

ان ذلك ، ربما فسر ، بعض العلاقات الايجابية بين عدد من علمائنا وسلاطين عصرهم .

اننا نقع في اعضال بالغ اذا لم نفتح ذاكرتنا واسعة على الماضي السياسي القريب للساحة اللبنانية . لان ذلك سوف يكون مقدمة لوقوعنا في اغراء العصبية ، وعندئذ تنفتح ذاكرة الجماهير على ماضي الاخرين وحاضرنا فتحذف الفوارق ، تعتبرها فوارق في الدرجة بين مظهرين لسياق واحد . وتختزل الحالة الاسلامية بوعي فئوي ، استثنائي ربما يكون واسعا نسبيا ، ولكنه يبقى استثنائيا مريضا بالاستثناء ، وسعته تاتي من نسبته الى الاخر على ما في ذلك من ظلم نحن نكون قد سببناه . . وعي فئوي ، قد يكون صحيحا بذاته ولكنه غير عملي وغير قابل للتعميم . . وتتحول الحالة الى انفصال عن السوية العامة تناضل بالنيابة وتفكر بالنيابة لتصبح من بعد نباتا بريا تنهض وحدها اذا نهضت ، وتكبو وحدها اذا ما كبت ، وربما سقطت وحدها .

لو استفتينا ذاكرة المسلمين في لبنان على مشروع

النهوض لبعض القوى السياسية الغائبة بنسب متفاوتة ، على مدى سنوات مضت ، لما وجدنا في هذه الذاكرة متسعا للرضى . . هذا لا يعني ان هذا النهوض مستحيل ، قد يكون قسريا ونتيجة ضعف مألوف عن تجسيد الرفض الجماهيري عمليا . . جل ما نخشاه ان لا يقوم هذا النهوض اذا قام على ايجابيات تخصه بل على سلبيات تخصنا !.

ان المواجهة التي حكمتها التقوى ونصرتها على اليهود كانت المفارقة الاساس التي ميزتنا خطابا وفعلا وحركة . من هنا كانت النقلة الجماهيرية نحونا ، غير ان هذه المواجهة كانت محكومة بسهولة تأتي من وضوح العدو والاجماع عليه ، غير ان هذا العدو ما عتم ان التبس او دخل في الالتباس عندما انسحب من بعض الارض ودخل في العمق فالتبس النصر وتداخل مع الوضع الداخلي فالتبس الاحتلال . وكان يجب على الوعي السياسي الاسلامي ان يرقى الى مستوى الالتباس ليواجهه بالتعقيد المطلوب . مع لحاظ ان هذا التعقيد له بُعدان : خارجي وداخلي ، وهما في حالة تأثير متبادل وفي لبنان طويل الامد ، مما

يـرتب صعوبـة في قياس حـالنا عـلى حال الجمهـورية الاسلامية في هذا المجال .

في الجمهورية الاسلامية كان الصراع مع الخارج يعـطي استقـواء في الـداخـل ، حتى تمت السيـطرة واصبـح الداخـل مرتكـزا مفصـولا وقـويـا في عمليـة الصـراع ضد الخـارج . والفارق يـأتي من تغايـر بـين الحـالتين ، فـالحالـة اللبنـانيـة تـأتي خصـوصيتهـا من خصـوصية تـركيبها التلفيقي الهـادف ، عـلى اسـاس الاستعمـار والتجزئـة واسرائيـل والغـرب ، ان هـذه الخصـوصية ليس من شـأنها او في امكـانها ان تشكـل ثـابتا يخـرق العام الاسـلامي . ولكنها ليست سهلة ، بـل هي من الصعـوبـة بحيث لا بـد من اخـذهـا في الاعتبار الى مدى يـطول او يقصر تبعا لمـا ننجز وتبعـا لمقدار الحكمة التي نعالجها بها .

واذا ما كانت الايديولوجيا تغري احيانـا ـ بسبب سلامتها ـ بتجاوز الملموس والتاريخي فان الافـراط في الـواقعية لا يشكـل بديـلا . واذا مـا كـانت المسـألـة حسب تعبـير الفقهاء مسـألة (مـوضوع) فلسنـا امام تعددية في المـوضوعـات وانما هنـاك فوارق بـين اقطار المسلمـين ، فوارق كبيـرة وصغيرة بـين مـوضـوعـات

تتنوع نسبيا على سياقها الواحد ، وتلزمنا بتنويع المعالجة ، على ان يبقى تنويعا على الخط العام من داخل المنهج ومحكوما بوحدة المآل . . في حين ان اهمال الفوارق من شأنه ان يحولها الى عوائق ، ويحول الجدل السياسي الى علاقة عدائية تناحرية ، يتم من خلالها تدمير الذات ومن تختلف معه واحياء النقيض الذي يكون اسرائيل وتبقى ابرز مصاديقه واخطرها .

واذا ما كانت الساحة اللبنانية تؤتى ايجابيا ، والى حد بعيد من ايران - هنا يحتاج الى كثير من الغباء والمكابرة من ينكر ان الثورة الاسلامية قد شكلت اهم الركائز التي قامت عليها مقاومة الاحتلال اليهودي - . فان الساحة الاسلامية في ايران تؤتى سلبيا من لبنان . . واهمية لبنان هنا هو ان الحالة الاسلامية على ارضه لها مدى حيوي هي واسطته - بسبب من كونها على خط المواجهة الأول وكونها قد اثبتت جدارة في المواجهة لم يكن لها سابقة - هذا المدى هو مجمل الساحة الاسلامية في العالم ، والمستقطبة بفلسطين لقد كانت هنا امثولة تفتحت لها قلوب الجميع . . وما زال على كاهلنا عبء حمايتها من التشويه والتشوه والتشويش والتحريف والتزوير .

ما من طرف تعاطى مع الساحة اللبنانية وحقق انتصارا ما ، الا وانساه الانتصار تاريخ الساحة فتوهم ان الغلبة النسبية هي غلبة مطلقة ورتب عليها اوهاما مطلقة ما عتمت ان تلاشت . . هذا لا يعني ان طرفا جديرا عليه ان يياس من الغلبة الكاملة . . بل عليه ان لا يتوهمها وان يبقي عليها كمشروع يستدعي المزيد من الحكمة والرؤية والروية . . ويستدعي ظروفا بعضها يتعدى الساحة اللبنانية .

عندما التفت الجماهير المؤمنة ، وآمن بعض من لم يكن مؤمنا ، وكان الجهاد الاسلامي المحكوم بعقيدة التوحيد والوحدة ، هو نقطة الاستقطاب الاولى ، كان الجميع يعتبرون انهم في التفافهم حول الحالة الاسلامية يرتقون من الأدنى الى الاعلى والارقى والازكى الذي يشكل المستوى الجهادي مميزه وعلامته النوعية و محكّة .

واذا ما كانت مسيرتنا السياسية او آليات عملنا الداخلي او ادارتنا لصراعاتنا وتحالفاتنا عرضة للتماثل مع تراث مرفوض ، فان ذلك سيكون احباطا لنا ولحالتنا وللحالة الجماهيرية حولنا . لقد وقع

الكثيرون في (الحزبوية - دائما تكون الحزبية مرصودة بامراض الحزبوية) وكان ذلك ايذانا بالانفصال عن العامة والاستعلاء عليها . نحن لنا في الالزامات الاسلامية الشرعية والعقيدية ما يحفظ لنا علاقتنا وتواصلنا مع العامة (وانما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمّة فليكن صغوك لهم وميلك معهم) .

ولنا في خصوصية الوظيفة القيادية ، ما يحفظ لنا تمايزنا النسبي الوظيفي والضروري عن العامة ، التمايز المسؤول ، لا التمايز الذي يتجسد امتيازا . . نحن لا نستغني عن الشمس ولكننا نتجنب ضربتها . . لقد ضربت الشمس ، شمس العامة - الجماهير - كثيرين فقعدوا في الظل ، استوطنوا الظل اتقاء للشمس . . فهلا توقينا خطر مجاملة العامة لنا ؟ هلا توقينا ايضا خطر احتراف لغة تفصل ولا تصل ؟

في لبنان . . كان واضحا منذ البداية ان الخطاب الكياني لا يتسع للمسلم بما هو مسلم . . وما زال الشك قائما فيما اذا كان الخطاب السياسي الوطني التقدمي يتسع للمسيحي بما هو مسيحي . . وعلى مذبح الوطنية دشنوا واسسوا الذبح على الهوية .

فهل نرثهم ؟

نحن ندعي ان الخطاب الاسلامي يتسع للمسيحي بما هو مسيحي . وهو خطاب حضاري فلماذا لا يقال هذا الخطاب بكامل حضاريته ؟

لماذا يتماهى مع الخطاب السياسي الآخر ؟ لماذا يقال كخطاب سياسي لا يحتاط للشك في مصداقيته . . وهو ليس كلاما مزجى يفضي دائما الى احتمال نقيضه او نقضه ، انه عقيدة وشرع ، له نموذجه التطبيقي المعاصر والمشرف في ايران الاسلام . أليس ملفتا ان اجهزة الاعلام الاستكباري المشغولة بالافتئات على الجمهورية الاسلامية ، لم تجد هنة ، او منشأ لهنة ، في تعاطي الجمهورية الاسلامية مع مسألة الاقليات الدينية الكتابية ، التي تعيش مترعة بكرامتها في ظل الاسلام ؟

الى أي حد نحن معنيون عمليا بالتمايز عن مؤسسي تاريخ الغريزة الطائفية ؟

الاخرون وقعوا في وهم التمايز عن غيرهم .

كان الاخرون فاشيين ولذلك فهم

ديموقراطيون . . وكان الاخرون انعزاليين لذلـك فهم وحدويون . . ونحن في اصولنا ،ـ علم اصول الفقه ـ لا نقول بمفهوم الوصف . . فاذا ما اثبتنا وصفا سالبـا للاخر فان ذلك لا يكفي لوصفنا بـالموجب . . ويبقى الايجابي شأنايستدعي سعيا واثباتا بذاته .

وختـامـا « من اشـار عـلى اخيــه بـرأي يعلم ان النصح في غيره فقد خانه » .

١٠ ـ عاشوراء . . الحضور والتحدي

ما عدتُ اذكر ما إذا كان ذكر الحسين (عليه السلام) يمرّ خفيفاً في مناهجنا الدراسية في لبنان . . أم لا اذكر ان معاوية كان يحظى باهتمام واضح . . منذ بداية القرن اي بداية التجزئة ، كان لا بد من تقطيع الاوصال بالعزل الثقافي وخلق استقطابات وعوامل جذب ثقافية تفضي الى الغرب والقبول به سيداً وقيّماً ، ذلك يعني انه لا بد من استبعاد الاسلام . . نهائياً ؟

لم يكن ذلك متيسراً . . اذن تخفيف الاسلام تدريجياً وتحويله في النهاية الى طارىء عابر ودفعه الى قعر الذاكرة واحتجازه فيها خلف مثال لبناني مصطنع

وملفق من الفينيقية والغرب عندما يذكر معاوية في كتب التاريخ اللبناني يأتي ذكره مبرراً بعلاقته باهل صور احفاد الفينيقيين الذين ساعدوه في بناء اسطوله لغزو جزر البحر المتوسط .

أما المحاور والنماذج الاصيلة من فكر ورجال واحداث فهي اما مغيبة او مختزلة بحيث لا تثير شهية معرفة ولا تحرك ارادة التمثل والاستعادة . . واذا كان لا بد من تاريخ ومناهل ومحاور تاريخية ، وكانت الفينيقية صعبة الاسترجاع ، فلا بأس من اختيار محاور قريبة طبقاً للمواصفات التي تطابق الصليبية والغرب . . . فتختار نماذج وشخصيات مبررها التاريخي الوحيد هو الخروج على السياق الاسلامي والتضاد معه . . فرجال الذروة القلة ابرزهم فخر الدين المعني الثاني وميزته لبنانياً انه عمل على اقلاق السلطة العثمانية في هذا الحيز من بلاد الشام وبالتنسيق مع الغرب وكان من اوائل من بشروا بالتجزئة وعملوا لها فكان بجدارة مؤسس التبعية في العهد العثماني . . وبشير الشهابي الثاني وهو قد زاد الى ماثر سلفه ارتداده عن الاسلام وتنصره وارتباطه

المباشر بنابليون بونابرت .

ان عملية التزوير والتشويه الثقافي ، الاعتداء ، طالت كل اقطار التجزئة ، ولكنها في لبنان كانت اشد قسوة ، بسبب التعدد الأثني والديني الذي اريد له من خلال التغريب ان تتغير معادلاته ، بحيث تنتهي الغلبة الاسلامية الطابع التي كانت ثمرة الوحدة ، الى غلبة مسيحية غربية على قاعدة التجزئة . . ولعل القسوة التي تعرض لها الاسلام والمسلمون بالعنف المباشر وغير المباشر من قبل قوى التغريب هي التي تفسر حالة النهوض والاندفاع الاسلامي غير المتهيب والذي يعيشه المسلمون في لبنان الان ، انه الى كونه رداً على الهجمة الشرسة فهو تعويض عن حالة حرمان من الاسلام ، تعاطيه والتمظهر به ، امتدت زمناً طويلاً .

لعل اقطار التجزئة الاخرى (غير لبنان) ، بسبب من ثانوية العنصر الآخر فيها أو انعدامه أو إنعدام تأثيره ، لم تواجه هذا التحدي وهذا التدمير السريع والشامل . . الى ذلك فإن تشكلها التاريخي الإسلامي جعلها ملزمة ثقافياً وتربوياً بالتواصل وفرض على

الغرب ان لا يهمل ذلك في اعتباره ... اي انه لم يكن يسيراً على الغرب قطعها ، بل كان قصاراه التداخل معها ثقافة وسلوكاً .. لم يقصر حكام هذه الاقطار ، وكلاء الغرب ، في قمع الاسلام والسعي لاستبداله ، ولكن التشكل التاريخي والهوية الاسلامية كانت باستمرار تنهض لتتحدى الحاكم وتجبره على المناوبة بين القمع والمجاملة ... حتى الشيوعيون من حكام التجزئة لا يجاهرون بشيوعيتهم ويحرصون على الظهور بمظهر التدين اثناء ماهم يديرون عملية التدمير الفكري والجسدي ضد الاسلام والمسلمين .. لقد مرّ زمن طويل على تكون السلطة الحديثة في العراق مثلاً ، وكان مفترضاً في هذه المرة ان تكون كافية لتقديم شخصية الحاكم الشاخص باناقة ، بديلاً لأئمة اهل البيت (عليهم السلام) .. وكان الحاكم الى ما قبل صدام حسين يتجرع غصته ويصبر على مضض وهو يرى الشعب ينساب طوعاً باتجاه ماضيه ، يستحضره وكأنه يعلن عدم اعترافه بحاضر لا ينتسب الى ذلك الماضي ويتحلق حول الأئمة ويتعامل معهم وكأنهم حكامه الفعليون .. يتعب

الحاكم الحديث كثيراً في وضع خطط التنمية وتنفيذها ويعقد الصفقات ويستقدم الخبراء والفنيين من كل الجنسيات ويشق الطرق ويمد الكهرباء ويوفر الكثير من اسباب الرفاه . . . والشعب لا يكتشف بالسرعة المطلوبة ما ينطوي عليه اسلوب التنمية من تهريب للثروة وارتهان للاستكبار . . ولكنه يفترض ذلك لان شخصية الحاكم « صدام » او غيره لا توحي له الا بسوء الظن لانه غير متطابق مع النموذج المستقر في وعيه ووجدانه الرسول وعلي والحسين (عليهم السلام) ولا يعطي ولاءه للحاكم . . يعطيه للمرجع الديني لانه نائب الامام ، علماً بان المرجع وبالمقياس المادي يأخذ ، ولكنه يأخذ بمقتضى الشرع وطبق معاييره ولا يستولي بل يقدم له الحق الشرعي طوعاً ، ويصرف طبقاً للمعايير الشرعية ايضاً .

والمؤمن الذي يأتي المرجع ليعطيه طوعاً ما زال يتحايل على القوانين ليتهرب من الضريبة لانها تذهب الى الحاكم الجائر المغتصب للسلطة من صاحبها (نائب الامام) .

لقد نفذ صبر الحاكم العراقي وهو يواجه هذا

التحدي . . فحاصر الناس بالمراقبة، والسجن والقتل والتشريد لمنعهم من الحسين وعنه . . . وحاصر الحسين (عليه السلام) حاصر الضريح ، وبمزيد من الحصار يدرك انه هو المحاصر ، وان قلوب المؤمنين لا تأبه للحواجز والمخاوف ولا تقف عندها ، بل يزيدها القمع والمنع تعلقاً . . . وفي أقسى درجات قمعه ومنعه يضطر صدام الى المجاملة . . فيزور العتبات المقدسة وتصل مجاملته الى أشد الممارسات الاستعراضية ابتذالا عندما يحاول ابتزاز ركاب الطائرة الايرانية المخطوفة بزيارة اجبارية لأضرحة الأئمة في كربلاء والنجف وبغداد . . كل ذلك يؤكد ان الأئمة في العمق . . ولم ولن تفلح كل العمليات التي تمارس لإقصائهم و الحلول محلهم لا الحصار ولا القتل ولا الحرب ولا محاولة اعدام النجف باعدام العلماء . . على العكس فان محاولة اعدام النجف قد اعاد لها وعياً بموقعها ودورها ربما كانت قد غفلت عنه لزمن طويل مما حولها من اشكالية صعبة الى بديل حتمي بما تعني وتمثل . . . اخذت العراق شاهداً ، قد لا يكون نموذجياً تماماً عن حالة اقطار التجزئة ، ولكنه شاهد

له ما يماثله بنسبة او بأخرى . . وقد أدركت شخصياً هذا الفارق لصالح أقطار التجزئة ـ غير لبنان ـ في هذا المجال عند قدومي الى العراق طالباً . . لم يكن في ذهني يومها من مفردات التاريخ الاسلامي واحداثه الا القليل النادر . . . وصلت العراق لأجد ان هناك مواليد للأئمة ووفيات وحيثيات وتفاصيل لا عهد لي بالتعاطي معها .

ان تاريخنا ، بما هو تاريخ ، يشكل الأئمة عليهم السلام صواه ومناراته ، هو تاريخ الصراع مع الظلم والجور والانحياز الى العدل الى المظلومين ساحة العدل ، حتى الشهادة ، ان الانحياز الى المظلومين لريادتهم نحو العدل يجعل الرائد في طليعة المظلومين مسؤولية وعطاءاً وتلقياً للظلم . . لقد كان أئمتنا أئمة المظلومين بجدارة ، قال له عاصم بن زيد الحارثي : يا أمير المؤمنين وهذا انت في جشوبة مأكلك وخشونة ملبسك ؟ فقال : ويحك اني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس حتى لا يَتَبيّغ بالفقير فقره . . وعندما يصبح الواحد منا ملزماً بالاندماج في تاريخه

ليستعيد وعيه وشخصيته وتطلعاته ويؤكد ذاته في مقابل الآخر المعتدي بالنفي والاقتلاع، يندمج في كل التاريخ ، لا يقطعه وهو الكائن الحي في الذهن والفعل ، ويستحضر كل رموزه دون استثناء ، ولكنه باستمرار يبحث عن الحلقة التي تمثل كثافة القضية ، عن الشواخص عن كثافة الظلم والتضحية ليجعلها قاطرة ذاكرته ، انها القاطرة . . ولكنها ليست العربة الوحيدة . . ثم ان تاريخه طويل متطاول ، متصل متواصل ، مفتوح على المستقبل . . من هنا هذه الوقفة الملية على عاشوراء . . ومن هنا هذه الاطلالة منها باتجاه ما قبلها وما بعدها وما يماثلها في الواقع الحي ، والانفتاح من خلالها على المهدي المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه) حيث يبلغ الظلم ذروته ويأتي العدل بكل طاقته .... هنا يلتقي الشهود بالغيب ان كانا قد افترقا !

اريد ان اقول : ان عاشوراء ، قد شكلت نقطة الاستقطاب المضاد للغرب والمعتصَم الحصين ضد عدواناته ونقطة الانطلاق نحو استجماع الوعي التاريخي الاسلامي والتواصل ضد محاولة الاخر في

التفتيت وتزوير الوعي واستبداله .. ذلك لم يكن بدعاً في تاريخنا ، لم يكن في اشكاله وتعبيراته ولغته الحديثة تأسيساً ، كان إتصالاً وثيقاً بماضٍ اسلامي لعبت فيه عاشوراء هذا الدور بجدارة منذ ان كان الامام زين العابدين (عليه السلام) يأتي القصاب ويسأله : هل سقيت ذبيحتك ؟ فيجيبه بالإيجاب .. فيقول الامام : ولكن أبي مات عطشان .. ومنذ ان اعلن الأئمة الرغبة الرؤية : أحيوا ذكرنا .. رحم الله من احيا ذكرنا .. ففهم المؤمنون ان احياء الذكرى ليس دافعه عشق الذات ، فهو احياء لكل ما يمثلون (أي الأئمة « عليهم السلام ») وهو ابقاء على الذاكرة بعيداً عن التزوير وهو ابقاء على التاريخ حياً جارياً في الحاضر متجهاً مستقيماً نحو المستقبل .

لا يخطر ببال احد منا ان يلتمس نقصاً في حب المسلمين من غير الشيعة لأهل البيت (عليهم السلام) لان ذلك افتئات يكذبه واقع الحال ومقتضى الايمان .. ولكن يبدو ان الانقسام الأفقي بين المسلمين قد وافق في المناخ السياسي العام ما دفعه

لان يتجه عمقاً الى حد ما . . . فحدث نوع من تقاسم الرموز والتعبيرات . . ان تسييس الرموز فئوياً قد تم على قاعدة التجزئة وبتأثير منها . . ومن هنا نرى ما تسببه العافية الإسلامية الثورية من يقظة على الوحدة التي تبعث بدورها على توحيد التعبير ، ونرى تطبيقاً لذلك شراكة سنية شيعية ملفتة في احياء عاشوراء في لبنان منذ نجاح الثورة الاسلامية . .

ولكني الى ذلك ، الاحظ وأرجو ان أكون خاطئاً ان شيئاً ما قد حدث على مستوى الأخوة السنة جعل علاقتهم بالشواخص والرموز تتسم بشيء من البرود

واذا ما خامرتها حرارة لم تكن حرارة باعثة نحو التمثل والاستعادة . . هنا لا بد من البحث عن دور الحاكم . . .

ان التوجه نحو رموز الصوفية لا يشكل بديلاً أو تعويضاً ، لأن الفكر الصوفي والسلوك الصوفي ذو قابلية على الاختراق الى حد امكان استخدام الصوفية ضد غاياتها ومن هنا كانت السلطات الحاكمة يقظة ومتنبهة للمسألة فتدخلت لتحول الاحتفال الصوفي

الى « فولكلور » و محولة الحضور الى غياب[1] .

وفي مصر تندرج العلاقة بالحسين (عليه السلام) والسيدة زينب (عليها السلام) في نمط العلاقة بالسيد البدوي وسيدي ابو العباس ، تبدأ العلاقة بالحسين وزينب (عليهما السلام) من كونهما من اهل

---

(١) « سقط بيت المقدس في يد الصليبيين عام ٤٩٢ هـ والغزالي الزعيم الصوفي الكبير على قيد الحياة ، فلم يحرك منه هذا الحادث الجلل شعوراً واحداً ، ولم يجر قلمه بشيء ما عنه في كتبه ، لقد عاش الغزالي بعد ذلك ١٣ عاماً إذ مات سنة (٥٠٥ هـ) فما ذرف دمعة واحدة ولا استنهض همة مسلم ليذود عن الكعبة الأولى . . كان عاكفاً على كتبه يقرر فيها أن الجمادات تخاطب الأولياء !! ويتحدث عن الصحو والمحو دون أن يقاتل أو يدعو غيره الى قتال . وابن عربي وابن الفارض الزعيمان الصوفيان الكبيران عاشا في عهد الحروب الصليبية . فلم نسمع عن واحد منهما أنه شارك في قتال ، أو دعى الى قتال ، أو سجل في شعره أو نثره آهة حسرة على الفواجع التي نزلت بالمسلمين . لقد كانا يقرران للناس ان الله هو عين كل شيء ، فليدع المسلمون الصليبيين فما هم إلا الذات الإلهية متجسدة في تلك الصور . . . » عبد الرحمن الوكيل ـ هذه هي الصوفية ـ دار الكتب العلمية ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٠ م القاهرة ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

« ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان أن رجلاً =

البيت (عليهم السلام) هو حب مطلوب (المودة في القربى) ولكنه محايد وغير منتج ان لم يكن محكوماً بالوعي وتبقى العاطفة خيراً غير انها لا تكفي وقد لا تبقى اذا بقيت وحدها وعندما نشطح او نبالغ او نغالي في حضرة شيخ الطريقة ونحاول العروج الى « فلوكلور » يستبعد الوعي يكون التوازن قد اختل والتواصل الفاعل قد انقطع وعندما ندرج الحسين (عليه السلام) في منظومة اولياء الصوفية لا يعود بامكاننا ان نستحضره بدمه واحتجاجه على الظلم

= فرنساوياً دخل في الإسلام وسمى نفسه : سيد أحمد الهادي واجتهد في تحصيل الشريعة ، حتى وصل الى درجة عالية ، وعين إماماً لمسجد كبير في القيروان فلما اقترب الجنود الفرنساوية من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها وجاؤوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه فدخل سيد أحمد الضريح ثم خرج مهولاً لهم بما سينالهم من المصائب وقال لهم : بأن الشيخ ينصحكم بالتسليم لأن وقوع البلاد صار بحتاً ، فاتبع القوم البسطاء قوله ، ولم يدافعوا عن القيروان أقل دفاع ، بل دخلها الفرنساويون آمنين » الوكيل ـ نفس المصدر ص ١٧١ نقلاً عن (مصطفى كامل ـ المسألة الشرعية نقلاً عن عمر فروخ ـ كتاب التصوف في الإسلام ص ١١) .

والجور ، بل على العكس ربما اعترانا حلم بان ننصح الحسين بالمسالمة وان لا يكلفنا الفجيعة ، ويمر يزيد وتمر كامب ديفيد . .

عندما شاهد احد مراسلي الصحف الأجنبية تظاهرة حسينية في حاضرة اسلامية ورأى ذلك القدر العالي في الصدق والإندفاع والاندماج في الذكرى

ويضيف الوكيل «وحين أغار الفرنجة على المنصورة قبل منتصف القرن السابع الهجري ، اجتمع زعماء الصوفية ! اتدري لماذا ؟ لقراءة رسالة القشيري والمناقشة في كرامات الأولياء » (ص ١٧٢ نقلاً عن ـ الشعراني ـ الطبقات ـ صبيح ج ١ ص ١١)

ويضيف الجبرتي ما كان يحدث في مولد « العفيفي » يقول « ينصبون خياماً كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوي ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم ، وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والملاعب والفوازي والبغايا والقرادين والحواة ، فيملأون الصحراء والبستان ، فيطأون القبور ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً ويجتمع لذلك الفقهاء والعلماء ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار ، بل يعتقدون ان ذلك قربة وعبادة » (تاريخ الجبرتي ج ١ ص ٢٥٥) .

علّق قائلاً : يبدو ان الشيعة ما زالوا يتظاهرون من اجل اسقاط نظام سقط منذ اكثر من الف عام . . كان الصحفي يجهل او يتجاهل ان حكامه الغربيين وصنائعهم في الشرق قد اعادوا الى الذاكرة يزيد شخصاً وحكماً وان الحسين (عليه السلام) ما زال ينادي : وهيهات منا الذلة[1] . .

في لحظات التحدي . . خاصة عندما يظهر ان الاعداء قد حققوا نصراً . . يصبح التوازن المطلوب موضوعياً غير ذي جدوى . . ولا بد من المظهر غير المتوازن على الاقل . . بعد الحرب الكونية الاولى حرب الاستعمار والتجزئة وما استلزما . . وجد

---

(١) قال تعالى : ﴿ خذوا حذركم ﴾ النساء - ٧١ - ﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾ الدخان - ٢٣ - ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ الانفال - ٦٠ - وفي المأثور « اعقلها وتوكل » رواه الترمذي من حديث أنس . وعن أبي عبد الله عليه السلام : « شيعتنا أهل الهدى ، وأهل التقوى وأهل الخير وأهل الإيمان وأهل الفتح والظفر » وعنه عليه السلام : « إياك والسفلة فإنما شيعة علي (عليه السلام) من عف بطنه وفرجه واشتد جهاده وعمل لخالقه ورجا ثوابه وخاف عقابه . الحديث » هذا وما قبله عن الكافي ج ٢ ص ٢٣٣ رقم ٧ و= ٨ .

المسلمون انفسهم عرضة التفتيت من الخارج والداخل وامام الانهيار الشامل كان لا بد لحفنة من المسلمين ان تعتصم بالاسلام اعتصاماً قاطعاً حفاظاً على النواة بتصليب قشرتها وبعد بداية الخمسينات كانت الهزيمة قد تبلورت اكثر وبعد اغتصاب فلسطين بدا وكأن الاسلام قد استبعد نهائياً وكل المشروعات الثقافية والسياسية التي استفردت بالساحة كانت غير اسلامية شيوعية وقومية ووطنية - غربية في النهاية - هنا اختل التوازن نسبياً ولكن في اتجاه ايجابي .. في الوسط الشيعي في لبنان ، كان هناك وعي باطن بان المطلوب من قبل الاعداء هو استبعاد الجانب الحركي

=وعن مهزم الأسدي قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « يا مهزم شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه ولا شحناؤه بدنه ولا يمتدح بنا معلناً ، ولا يجالس لنا عائباً ، ولا يخاصم لنا قالياً ، ان لقي مؤمناً أكرمه وإن لقي جاهلاً هجره قلت : جعلت فداك فكيف أصنع بهؤلاء المتشيعة (الذي يدعون التشيع وليس لهم معناه) قال : فيهم التمييز وفيهم التبديل وفيهم التمحيص ، تأتي عليهم سنون تفنيهم وطاعون يقتلهم واختلاف يبددهم ، شيعتنا من لا يهر هرير الكلب ولا يطمع طمع الغراب ولا يسأل عدونا وإن مات جوعاً . . . الحديث » (الكافي ج ٢ ص ٢٣٨) .

من الفعل والوعي الاسلاميين بتحويله الى طقوس عبادية مفرغة ، وكان الرد هو بناء الحسينيات . . في حين كان الرد على التحدي الشيوعي في العراق في أواخر الخمسينات ببناء المساجد . . . ومنذ ان بدأ الواقع الاسلامي يتعافى منذ أواخر الستينات عاد التوازن والاهتمام الى المساجد على حساب الحسينيات احياناً .

واما تحديات (الفكر الثوري المستورد) حصل جدل واسع منذ الخمسينات ايضاً . . . حول

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل جاء في آخره : « يا جابر لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل أن يقول : أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعالاً فلو قال : إني أحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرسول الله خير من علي ، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً ، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله ، ليس بين الله وبين أحد قرابة ، أحب العباد الى الله تعالى وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته ، يا جابر والله ما يتقرب الى الله الا بالطاعة ، ما معنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجة ، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي . . ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو ، ما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع » . (الكافي ج ٢ ص ٧٤) .

عاشوراء والعلاقة بالحسين (عليه السلام) ، هل هي علاقة عاطفية او علاقة ثورية .. في حال انعدام التوازن ، تتعارض الثورة مع العاطفة . . . ومع خيبة الامل بالأحداث اللبنانية والأطراف التي خاضتها استعيدت عاشوراء بشكل واسع وكان البكاء سائداً . . كان المؤمنون يسنون قلوبهم بالحزن انتظاراً لدور آت .

ومع نجاح الثورة الاسلامية في ايران عاد التوازن الى مجالس العزاء ، تجاورت الدمعة مع الكلمة الحية وتعانق التاريخ مع الحاضر في اطلالة واعية نحو المستقبل . . لا أريد ان اطيل اكثر . . اريد ان اقول ان عاشوراء محطة ثابتة ، والمتغير هو نحن . . كيف نأتيها . . على صهوة الحزن وحده ام على صهوة الوعي وحده . . هذا الخيار مطروح في حالات الارباك وانعدام التوازن . . واما في حالات التوازن والوضوح والانتصار فاننا نغرق في احزاننا الحسينية ونستغرق الى حد ان ننفتح على وعي كوني شامل وعميق وشعور حضاري مترع . . ونمعن في وعينا الى ان نبلغ من

الشفافية حداً تنفتح فيه المآقي على وسعها وينهمر الدمع الكربلائي ليغسلنا ويطهرنا ويقدمنا الى الأمة ثواراً لا نعتني فقط بما تنجز على الارض من اهداف بل وبالمضمون الأخلاقي والانساني لهذه الاهداف..

... اقول بأن هذا متغير وهو في الواقع نسبي التغير ونسبي الثبات .. المتغير هو الاشكال ، اشكال الاحياء ، وهي على ما فيها من تغير وتغاير تؤثر فيه الجغرافيا والتاريخ محكومة بثابت لا يتغير هو الحسين القضية المترجمة باستمرار وبأشكال مختلفة على مرّ التاريخ .

وما يبدو من تغير في الاشكال إنما يأتي تعبيراً عن ظرف طارىء .

ولسوف تبقى أشكال الأحياء تتبدل بتبدل الظرف الى ان يعم الاسلام وعدل الاسلام أصقاع الارض كافة وعندئذ تكون عاشوراء قد استنفدت اشكالها بتحقيق مضمونها على الارض على يدي المهدي المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه) .